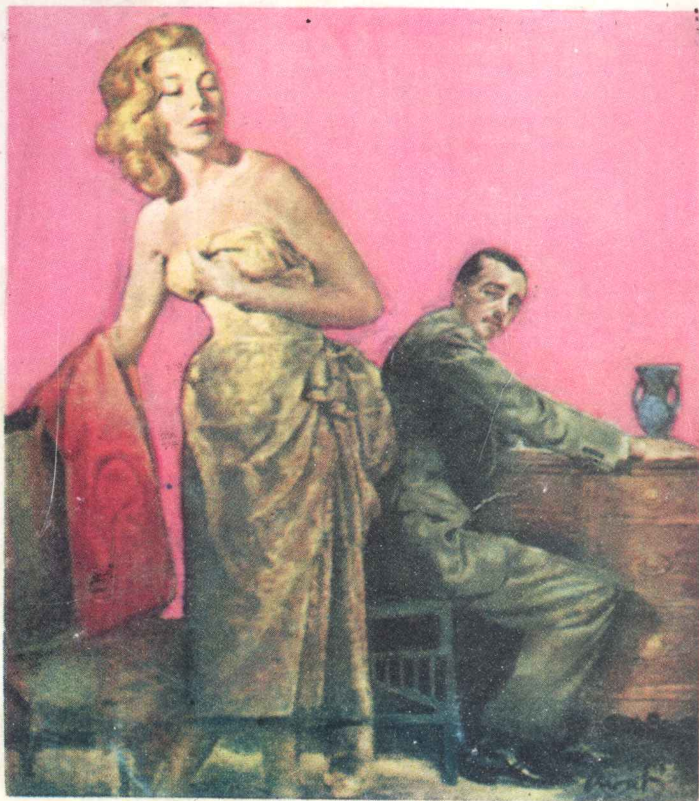


البرتو مورافيا

صفقة الشيطان

ترجمة: محمود مسعود



أحبها وتزوجها واتخذ منها الهامه الخلاق ، ولكن عاطفته المضطرمة صرفته عن الكتابة واستنزفت قدرته على التفكير ، فاتفقا على أن يتباعدا ليلا حتى يفرغ من قصـــته ، وراحت صابرة تحثه وتشجعه ، فكتب قصة فذة رائعة . ولكنه حين اكتشف أن ملهمته خانته تبدت القصة فى نظره ركيكة مهلهلة ، وهم أن يقذف بها طعمة للنيران . ولكنه عرف ايحاءا — أن كبوتها كانت نزوة عارضـــة ، فغفر لهـــا .

سُور الأزبكية

عُمَر زَينَب يوسُف

صفقة الشيطان

تأليف : البرتو مورافيا

ترجمة : محمود مسعود

الفصل الأول

اود قبل كل شيء أن أتكلم عن زوجتي ..

ان المحبة تعني، بغض النظر عن اعتبارات أخرى كثيرة ، التلذذ بالنظر الى المحبوب ومراقبة حركاته .. والتلذذ هنا معناه التأمل لا فى المحاسن وحدها بل فى العيوب أيضا ، سواء كانت قليلة أو كثيرة .

ومنذ الايام الاولى لحياتنا الزوجية ، كنت أجد بهجة لا حد لها في التطلع الى زوجتي ليدا ، وفى دراسة كل شيء فيها ، حتى الحركات والتعبيرات الهينة العابرة فى وجهها وجسدها ..

كانت زوجتي عندما تزوجنا لا تجاوز عامها الثلاثين الا قليلا ، (وبعد أن أنجبت فيما بعد ثلاثة أطفال ، فان خصائص معينة فيها لا أقول أنها تغيرت ، ولكن طرأ عليها شيء من التحوير والتعـــديل) .. كانت متوسطة الطول ، وافرة الحسن وجها وقواما ، وان كانت بعيدة عن الكمال .. كانت تكسو محياها الطويل النحيل مسحة ساجية باهتة كالتي تعلو وجوه تماثيل الآلهة القديمة التى يزيد من علائم الغموض فى سماتها تقادم العهد وتطاول الزمن .. ان جمالها الساجى كان يبدو وكأنه لا يلبث أن يختفى فى أية لحظة ، كضياء شعاع شمس فوق جدار ،

أو ظلال سحابة عابرة فوق البحر ·· كان جمالها مزاجا من عنصرين : الاول شعرها الاشقر الذى يبدو دائما وهو غير مصفف تمـــاما ، تتدلى خصلاته طويلة وكأنها فى اهتزازها تشف عن رعشة خوف أو هروب من شيء ·· والعنصر الثانى عيناها الزرقاوان الواسعتان فى ميل يسير ، بحدقتيهما الكبيرتين اللامعتين التى تنم نظراتهما القلقة المراوغة عـن حالة عقلية قوامهـا التخـوف والاستحياء معا .. والى ذلك كان أنفها كبيرا مستقيما متناسقا ، وثغرها الواسع الاحمر يبدو قويا بصورة غير عادية ، تتضح فيه سمة حسية مفرطة كالحة ، وشمته السفلى تهبط بعمق فوق ذقن صغير دقيق ·· كان وجها غير متناسق القسمات ، ولكنه كان موفور الحسن ، يبدو جماله الساجى كما قدمت وكأنه لا يلبث فى لحظات خاصة وظروف بعينها أن يختفى ويذوب ، كما سأشرح هذا فيما بعد ··

ومثل هذا يمكن أن يقال عن جسدها ·· من وسطها فصاعدا كانت نحيلة ورقيقة كفتاة غضة ·· أما دون ذلك فكانت مليئة ، قوية ، موفورة النمو والحيوية ·· ان انعدام هذا التناسق الجسدى ، كانعدام التناسق فى الوجه ، كان يخفف منهما طابع الجمال الذى يشملها من الرأس الى القدمين كهالة التمام ، كضياء خفى سحرى أخاذ ··

ومن عجب أن أقول أننى عندما كنت أنظر اليها أحيانا ، أتوسمها حقا شخصا ذا كيان وقسمات مثالية ، خلوا من كل عيب ، مليئا بالتناسق والصفاء ، الى حد أن هذا الجمال الذى لابد أن أسميه روحانيا ، كان يستهوينى ويخلب قلبى . ولكن كان ثمة لحظات يتمزق فيها القناع

الذهبى ، وعندئذ لم تكن المتنافرات الكثيرة تنكشف لى فقط ، بل كنت أرى كذلك مسخا أليما لشخصيتها كلها ..

اننى توصلت الى هذا الاكتشاف فى أثناء الأيام الأولى من حياتنا الزوجية ، وشعرت لحظة كأننى وقعت ضحية الخداع ، كمثل رجل تزوج من أجل المال ، فاكتشف بعد الزواج أن زوجته فقيرة .. أحيانا كان وجه زوجتى كله يتقلص بالتواءة صامتة يرتسم فيها الخوف والضنى والتحدى معا ، ممتزجة فى نفس الوقت بافتتان جنسى عصى .. ان هذه المسحة التى كانت تطالعها ، كانت تبرز للعين تنافر قسماتها بصورة عنيفة ، وتسبغ على وجهها صورة قناع كاريكاتيرى شنيع ، جمع فى مظهره بقصد الدراما والكوميديا معا ، علائم التبذل والتأذى فى اهاب واحد ، وخاصة فيما حول الفم والخيشومين والعينين .. وكان من عادة زوجتى أن تصبغ شفتيها بأحمر الشفاة القانى الثقيل ، وكانت تضع أحمر الخدود على وجنتيها لشحوب لونهما .. ولم تكن هذه الالوان الصناعية تسترعى النظر عندما تكون ملامح وجهها هادئة ، اذ كانت تبدو متناسقة مع لون عينيها وشعرها وبشرتها .. ولكنها كانت تبرز مجسمة حين تعتورها تلك الالتواءة المتقلصة ، بل تبرز جافية صارخة ، وكان محياها الذى يبدو من قبل شديد الصفاء والبهاء والحسن النورانى ، لا يلبث أن يثير فى الخيال صورة قناع كرنفال صارخ التلوين مثير للضحك والى هذا يضاف طابع التبذل الذى تستمده مثل تلك التقلصات الجسدية من طراوة وحرارة البدن النابض بالحياة ..

وكان جسدها كوجهها ، تختفى منه أحيانا علائم الجمال ، وتعتريه تلك التقلصات القبيحة .. كانت تنهار

تماما كما لو كان يفعل الخوف أو الاشمئزاز ، دافعة ذراعيها وساقيها الى الامامفى وضع دفاع عن النفس من شيء ، كراقصة صامتة هدفها اثارة النظارة ، ولكن جســـدها فى نفس الوقت ينحنى الى الخلف فى وضع به اغراء ٠٠ كان يبدو كأنما تدفع عنها خطرا متوهما ، وفى نفس الوقت تصور بالالتواء العنيف للجسد أن الخطر الداهم ليس غير مستحب ٠٠ كانت هذه الظاهرة لدى زوجتى خالية من الرشاقة ، وباقترانها بتلك الالتواءة المتقلصة فى وجهها ، كانت تثير الشك لدى الانسان فى أنه لا يزالحقا أمام نفسالمرأة التى كانت منذ برهة بادية الهدوء والصفاء والجمال ٠٠

قلت منقبل أنالمحبة معناها أن يحبالانسان كلشيء فى المحبوب ، العيوب الى جنب المحاسن ٠٠ ولذلك كانت هذه التقلصات الوقتية ، رغم قبحها الشديد ، لا تلبث أن تستهوينى كما يستهوينى الجمال والتناسق والصفاء فى اللحظات الطيبة ٠٠ ولكن المحبة تعنى أيضا ، أحيانا ، عدم الفهم ٠٠ ذلك لانه اذا صح أن ثمة صورة معينة للحب تعنى الفهم الكامل ، فصحيح أيضا أن هناك صورة أخرى أشد اتقادا تعمى الانسان فيما يتعلق بمن يحب ٠٠ أننى لم أكن أعمى بمعنى الكلمة .. ولكن كان يعوزنى ذلك الاشراق الذهنى المقترن بالحب الراسخ الوثيق ٠٠ كنت أعلم أن زوجتى فى ظروف معينة تصبح قبيحة مجردة من الرشاقة والبهاء .. ان هذا بدا لى حقيقة غريبة قابلة للمحبة ككل شيء آخر فيها .. ولكنى لم أكن مستطيعا أن أذهب الى ابعد من تقرير هذه الظاهرة ٠٠ ولم أكن فى هذا راغب ايضا ...

وينبغى لى فى هذه المرحلة أن أبين أن التقلص والالتواء كانا يحدثان نادرا جدا ، ولم يحدث شيء منهما

فى لحظات خلوتنا ·· ولست أذكر ان صدرت قط من ناحيتى اية كلمة أو اشارة يتسبب عنها ذلك التحول الغريب الذى كان يعتورها ، فيحيل وجهها الى قناع وجسدها الى دمية متحركة ·· بل كان الامر على عكس ذلك ، فان سعادتنا الزوجية كانت تامة لا تشوبها شائبة ·· والواقع أن التحول الكريه عندما كان يحدث ، كان يتولد من أشياء لا يتوقعها الانسان قط ، ومن ظروف غير ذات أهمية ·· ويكفى أن أذكر هنا بعضها ·· كانت زوجتى دائما من عشاق القصص البوليسية ·· وقد لاحظت أنها عندما كانت تصل الى النقطة التى تصبح فيها حبكة القصة خالبة للب ومثيرة للفزع . فان وجهها كان يتقلص تدريجيا بذلك الالتواء ، ولا يزول حتى تنتهى الفقرات التى اثارته ·· ثم ان زوجتى كانت أيضا شديدة الولع بلعب القمار ، وكنت أذهب معها الى نوادى القمار فى كامبيونى ومونت كارلو وسان ريمو ·· وفى كل مرة بعد أن تراهن على اللعب وتأخذ العجلة فى الدوران ، والكرة فى التواثب من رقم الى رقم ، كان وجهها يتشكل بذلك التقلص التقبيح ·· وانتهى بها الامر الى حد أن مجرد ادخال خيط فى عين ابرة ، أو تراكض طفل على حافة غير مستهدفا للوقوع فيه ، أو سقوط نقطة ماء بارد فى ظهرها ـ كان أحد هذه الاشياء كافيا لكى يطرأ الالتواء والتقلص على وجهها ·

على أنى أريد أن أذكر بالتفصيل حادثين بدا فيهما أن ذلك التقلص الغريب الذى يعترى وجهها كانت له مسببات اكثر تعقيدا . . فذات يوم كنا فى حديقة الفيللا الريفية الخاصة بنا وكنت منهمكا فى محاولة انتزاع (شتلة) حشائش برية طويلة نمت وتفرعت فى البقعة المكشوفة أمام البيت ·· ولم تكن هذه المهمة باليسيرة اذ

كانت (الشتلة) لزجة فى يدى وجذورها ضاربة فى التربة . . وتصادف بينما كنت منهمكا فى هذه العملية أن رفعت نظرى الى زوجتى ، فأدهشنى أن رأيت وجهها وجسدها وقد مسخا تماما بما اعتراهما من الالتواء والتقلص اللذين تحدثت عنهما ·· وفى نفس اللحظة استجابت (الشتلة) لقوة الجذب فوثبت من باطن التربة بجذورها الطويلة المعروقة ، حتى وقعت على ظهرى فوق الحصى ··

وفى مناسبة أخرى دعونا بعض الاصدقاء الى العشاء فى بيتنا فى روما .. وقبل وصول الضيوف بدا لزوجتى بعد أن ارتدت ملابس السهرة وتحلت بمجوهراتها أن تعرج على المطبخ لكى ترى أن كل شىء على ما يرام ·· فتبعتها .. وقد وجدنا الطاهية فى حالة فزع وهى تحاول أن تلقى فى الاناء سرطانا بحريا ضخما بمخالبه المخيفة وما زالت تدب فيه الحياة ·· فما كان من زوجتى الا أن اقتربت من الطاولة دون أدنى هرج وأمسكت بالسرطان من ظهره وقذفت به فى الماء المغلى ·· ولابد أن أقرر أنه كان عليها لكى تفعل هذا أن تبتعد قدر المستطاع عن الكائن البحرى المرهوب وعن اناء الطهى ·· ولكن هذا الاحتياط من جانبها لم يمنع أن يعتر وجهها ذلك التقلص القبيح وأن يهتز جسدها بتلك الرجفة الغريبة التى لم يخف اختلاجها من تحت ثوب السهرة الحريرى اللامع ··

وفى تصورى أن زوجتى لابد قد عرضت لها هذه الظاهرة مرات لا عداد لها ، وفى مناسبات شتى متباينة ·· ومهما يكن ، فتبقى هنا بعض حقائق لا تقبل الجدل ·· ان ظاهرتى تقلص الوجه والتواء الجسد لم تحدثا قط فى لحظاتنا السعيدة ·· كما أن مثل هذه

ألتقلصات والالتواءات كان يصاحبهـــا دائما نــــوع من الصمت العميق ، صمت ترقب قلق كان يبدو أقرب الى صرخة مكاومة حبيسة منه الى انعقاد اللســـان ·· واخيرا ، فان تقلص الوجه والتواء الجسد كان يبدو دائما أنهما ناجمان عن رعب من شيء كحادث مباغت ينقض فجأة وعلى غير انتظار كأنه ومض البرق .. هو رعب كمـــا أسلفت القول ، كان يبدو مختلطا بافتتان جنسى ·

الفصل الثانى

تحدثت عن زوجتى بما فيه الكفاية ‥ وقد آن الاوان لكى أتحدث عن نفسى ‥

اننى طويل نحيل ، ذو وجه يشف عن الحيوية ، وملامح بارزة حادة ‥ وقد تبدو بتدقيق النظر امارات ضعف معينة فى تكوين ذقنى وصورة فمى ‥ ولكن تبقى هناك حقيقة هى أن وجهى يشف عن القوة والعزم ، وان لم يكن يمثل طبيعتى الحقيقية ، وانما يمثل بعض التناقضات فى نفسى ‥

ولعل أبرز خاصية فى شخصى جديرة بالتنويه هى افتقارى الى العمق ‥ فأيا كان الذى أقوله أو أفعله ، تبدو ذاتى كلها وقد تضمنها ما أقول أن أفعل ، ولا يبقى لى رصيد احتياطى يمكن أن أستند اليه فى حالة الاضطرار الى التراجع ‥ اننى فى الواقع رجل بمثابة (طليعة) من أوله الى آخره ، ليست لى (مقدمة) ولا (مؤخرة) ‥ ومن هذه الخاصية تولد نزوعى الى التحمس : فاننى أنفعل لاتفه شىء ‥ على أن هذا الانفعال الحماسى أقرب الى جواد فقد سيطرة راكبه عليه فاصطدم بسور عال بعد أن ألقى براكبه وتركه فى التراب مسافة أمتار ‥ وما أعنيه بهذا الكلام هو أن حماستى

من نوع تعوزه القوة الذاتية الفعالة التي يبدونها تتضاءل الحماسة وتستحيل الى مجرد رغبة بلهاء ولغو سطحي .. وأنا في الواقع أقرب الى تعلق باللغو ، أعني الاستعاضة بالاقوال عن الافعال .. ثم ان هذه الخاصية اللاغية ذات طبيعة عاطفية .. فأنا أريد مثلا ان أحب ، وكثيرا ما أخدع نفسي بأنني احب فعلا ، في حين ان كل ما أفعله لا يعدو حد الكلام عن الحب ، مع انفعال شديد ولا شك ، ولكنه ببساطة لا يزيد عن مجرد الكلام .. وفي مثل هذه اللحظات تنبثق الدموع بسهولة فأتلعثم ، واتخذ كل اشكال العاطفة الجياشة .. ولكن من تحت ظواهر هذه الحماسة الخارجية ، فانني غالبا ما أخفي رقة موسومة بالدهاء تجعلني أقرب الى المخادعين ولا تمثل اية ثورة حقيقية ، وما هي الا مجرد تعبير عن الانانية والغرور ..

وفي نظر كافة الذين يعرفونني معرفة سطحية ، كنت ، قبل التقائي بزوجتي ليدا ، ما يمكن أن يسموه بهاوي الفنون .. وبعبارة أخرى ، الرجل الميسور الحال بما يكفي لكي يحيا حياة الدعة والرخاء ، مكرسا هذه الحياة للاستمتاع بالفن في شتى صوره .. وفي ظني أن هذا التقريم ، فيما يتصل على أي حال بالدور الذي كنت ألعبه في المجتمع ، كان تقييما صحيحا في عمومه .. أما اذا خلوت الى نفسي ، فانني كنت أي شيء آخر غير هاوي الفنون .. فقد كنت رجلا يعذبه القلق ، وهو دائما على شفا اليأس .. هناك بين أعمال الكاتب ادجار آلان بو قصة تصف وصفا دقيقا حالتي العقلية في ذلك الحين ، هي تلك القصة التي تسرد مغامرة صياد تشده مع قاربه تقلبات دوامة من البحر .. ويظل الصياد في قاربه يدور حول أسوار الهاوية ، ومعه ، ومن فوقه ، ومن تحته ،

وبجانبه ، يدور ركام لا حصر له لسفن محطمة سابقة ٠٠ وهو يعلم أنه كلما دار ودار كلما اقترب أكثر فأكثر من قاع الدوامة حيث ينتظره الموت ، وهو يعلم من اين جاء كل ذلك الركام من الهشيم والحطام ٠٠ بهذه الصورة فان حياتى يمكن مقارنتها بتلك الدوامة الابدية ٠٠ فقد كنت مقيدا بين تقلبــات دوامة سوداء ، ومن فوقى ، ومن تحتى ، وفيما كل ما حولى ،كنت أبصر كل الاشياء التى أحبها وهى تدور حول نفسى ومعى ــ تلك الاشياء التى اعيش بها ومن أجلها ، ولكننى كنت أراها منجرفة معى فى ذلك الحطام المغرق الغريب ٠٠ كنت أشعر أننى أدور فى دائرة مع كل ما هو طيب وجميل مما جرى خلقه وابتداعه فى هذا العالم ، ولم اكن أتوق لحظة واحدة لرؤية قاع الدوامة الاسود الذى كان يدخر لى ولكافة الطائين معى فى الحطام المغرق النهاية المحتومة ٠٠ وكانت تجى أوقات كان يبدو فيها أن الدوامة تأخذ فى الضيق والدوران بسرعة أقل ، وتردنى بذلك الى السطح الهادى فى الحياة اليومية المألوفة ٠٠ وكانت تجىء أيضا لحظات تأخذ فيها دوائر الدوامة فى الدوران بسرعة أشد وعمق اكبر ، وعندئذ انحدر واتردى ، دائرا مستمرا فى الدوران الى أسفل وأسفل ، وتنحدر وتتردى معى كافة الفنون والعلوم البشرية . . عندئذ كان يساورنى الحنين الى أن يكون ابتلاعى نهائيا بلا رجعة ٠٠ وفى مستهل شبابى كانت هذه الازمات متكررة ، وبوسعى أن أقول صادقا أنه لم يمض يوم واحد فيما بين بلوغى العشرين والثلاثين لم تراودنى فيه فكرة الانتحار ٠٠ وبالطبع لم اكن راغب حقا فى قتل نفسى (والا لفعلت هذا) ، ولكن هذه الفكرة المتسلطة كانت مع ذلك هى اللون الغالب المسيطر فى رقعة حياتى العقلية ٠٠

وكثيرا ما كنت أفكر فى ألوان العلاج الممكنة لحالتى ، فلم ألبث أن أدركت أنه ليس ثمة سوى شيئين اثنين يمكن بهما انقاذى : حب المرأة ، وخلق فنى ، وقد يبدو أمرا مضحكا ان اخص بالذكر شيئين لهما مثل هذا القدر وهذه الاهمية بهذا الاسلوب العرضى العابر ، وكان المسألة كانت مجرد وصفتين من علاج دجال يمكن شراؤهما من اى مخزن ادوية ·· ولكن هذا البيان الموجز من شأنه ان يبين الوضوح التام الذى بلغته من التفكير عندما أصبحت فى حوالى الخامسة والثلاثين ، فيما تعلق بمشكلات حياتى .. فأما عن الحب فقد بدا لى ان لى فيه من الحق مثل ما لسائر الرجال فى هذه الدنيا ·· وأما عن الخلق الفنى فقد كنت مقتنعا بأننى متجه اليه طبيعيا بميولى وأذواقى ، وكذلك بموهبة سول لى الوهم اننى املكها فى اللحظات الطيبة من أوقاتى ··

ان ما حدث ، على النقيض ، هو أننى لم أتجاوز قط صفحتين او ثلاثا من كتابتى ·· وفى مجال النساء فاننى لم أبلغ قط عمق الشعور الذى يؤدى الى اقناعنا واقناع الاخرين .. ان الذى سبب لى أبلغ الضرر فى كل من جهودى العاطفية والادبية،كان علىوجه التحديدوالدقة هو تلك البوادر السريعة السهلة من جانبى للتحمس ، التى كانت فى سرعة اندلاعها تماثل سرعة خمودها ·· وما أكثر المرات التى حسبت فيها أننى ، فىقبلة انتزعها من فتاة غير راغبة ، وفى صفحتين او ثلاث أسطرها بسرعة مخيفة ، قد وجدت ما أنشد وما أسعى اليه ·· فمع المرأة كنت ألوذ بعاطفية لفظية تنتهى بابتعادها عنى وتنكرها لى ·· وفى الكتابة كنت أفقد نفسى فى متاهات المغالطة والسفسطة ، أو فى فيض من الكلام يعز فيه

الالهام ويدفعنى اليه ايثار السهولة العابرة ·· ان عزم اندفاعى الاول يكون طيبا ، ويخدعنى والاخرين. .ثم لا ألبث أن يعترينى ويتسلل الى ضعف مبهم لا كنه له ، فيصيبنى بالفتور والاستطراد المضل · وعندئذ أدرك فى مقام الحقيقة أننى لم أحب ، ولم أكتب ، بقدر ما هممت بالحب وبالكتابة ·· وأحيانا كنت أجد امرأة ، أمـا لفائدتها أو من قبيل الشفقة على ، على اسـتعداد لتصديقى أو لخداعى أيضا ·· وفى مناسبات أخرى كان يبدو ان الصفحة التى أسطرها تدعونى الى الاستمرار .. لكن ثمة خصلة طيبة فى طبعى ، هى ضمير حى يوقفنى فى الوقت المناسب على طريق الوهم .. وعند ذاك أمزق الصفحات وامسك عن زيارة السيدة المعنية متوسلا بهذا العذر أو ذاك ..

وفى مثل هذه المحاولات الضائعة غير ذات الجدوى تعاقب الشباب وولى ··

الفصل الثالث

لا حاجة بى الى أن أبين أين وكيف التقيت بزوجتى لاول مرة ، فلابد أن ذلكتم فى قاعة سمر أومندى مترف ، أو شىء من هذا القبيل ..

كانت تماثلنى فى العمر تقريبا ، وقد بدا لى أن حياتها من نواح كثيرة تشبه حياتى .. انما الواقع ان هذا الوصف كان ينحصر فى نواح قليلة ، وهى نواح سطحية فى هذا الصدد .. فهى مثلى ، كانت ميسورة الحال ، رغدة العيش ، تتقلب فى ذات الدوائر وتحيا نفس هذا الطراز من الحياة .. ولكن بالنسبة لى وانا ذو الحماسة السريعة الزوال ، فان ذلك بداشيئا بالغ الاهمية عندى ، وكاننى قد وجدت توأم نفسى ..

كانت متزوجة وهى بعد صغيرة جدا فى ميلان مسقط راسها ، من رجل لم تكن تحبه .. وقد دام الزواج عامين ، ثم كان لابد ان ينفصلا ، وحصلت على الطلاق فى سويسرا .. ومنذ ذلك الحين أقامت زوجتى دائما وحدها .. والشىء الذى بعث فى نفسى الأمل باننى قد وجدت أخيرا المرأة التى كنت أبحث عنها ، كان اعترافها لى يوم التقائنا لاول مرة ، وهو أنها سئمت جدا الحياة التى كانت تحياها ، وأنها تريد ان تستقر بارتباط قوامه المودة الحقيقية .. وفى هذا الاعتراف ، الذى أبدته

ببساطة متناهية ودون أى انفعال ، وكأن المسألة كانت مجرد برنامج عملى لاطموحا مؤثرا بعد حياة مجردة من الحب ـ فى هذا الاعتراف بدا انى عرفت نفس الحالة العقلية التى ظلت مسيطرة على مدى سنوات طويلة . وعلى الفور ، وبنفس اندفاعى الحماسى التقليدى قررت انه لابد أن تكون زوجتى ..

اننى لا أظن أن ليدا وافرة الذكاء .. ومع ذلك فانها أفلحت فى أن تظفر فى نظرى بسلطان خفى ، بفضل ما وطدته لنفسها فى حياتى من أهمية وقيمة ، وبفضل ما يبدو فى هيئتها من خبرة بالحياة وبفضل ما فى مسلكها من موازنة مقبولة بين التساهل والاستخفاف . . . وبسبب هذا فان ايسر بادرة منها للفهم والتشجيع كانت لها قيمتها وارضاؤها للكبرياء الذاتى . . لقد كنت أتوهم فى ذلك الحين اننى اقنعتها بأن تتزوجنى .. ولكن بوسعى الان ان أقول انها هى التى صممت على هذه الخطوة وانه لولا هذا التصميم من جانبها لما تم الزواج ابدا . والواقع اننى كنت لا أزال فى المراحل الاولية من التودد وكان اعتقادى انه سيطول ويكون صعبا ، عندما عمدت الى التأثير على واسلمت لى نفسها ..

بيد أن هذا الاستسلام الذى كان يبدو لى فى غيرها من النساء علامة على العفة السهلة وكان جديرا بأن يثير احتقارى ، كان له فى شخصها نفس الميزة النادرة المرضية الكبرياء ، مثلما كان لمبادراتها الاولى فى التساهل والتشجيع ..

وبعد أن استحوذت عليها ، لم ألبث أن أدركت أن ذلك السلطان الخفى المعقود لها على نفسى ظل كما هو لم ينل منه شىء ، بل فى الواقع قوى واشتد بتأثير لهفة مشاعرى التى ظلت حتى ذلك الحين خامدة .. والان فانها راحت

بقدر أكبر من الذكاء الغريزى تلعب على أوتار رغبتى ..
وهكذا اكتشفت أن طبيعة جمالها المراوغة الهاربة ما تلقها
طبيعة عقلية متشابهة .. وكانت النتيجة أننى لم أتيقن
أبدا من امتلاكها والاستحواذ عليها كليا .. وفى الوقت
الذى كنت أشعر فيه بأننى على وشك الشبع والامتلاء ،
كانت تكفى كلمة أو اسارة منها لكى تثير خوفى من أننى
موشك على فقدها .. وقد دامت هذه التقلبات بين
الاستحواذ واليأس حتى يوم زواجنا .. وعند هذا الحد
كنت مفتونا بحبها غارقا فيه حتى الاذنين ، وأدركت أنه
لابد لى بأى ثمن من أن أحول بين هذا الحب وبين انتهاء
أجله مثل حالات الحب التى سبقته ، والتى كانت تنتهى
بالخيبة والخواء .. وبدافع من هذا الخوف وعلى كره
فى نفس الوقت ، وظنا منى بأننى فاعل شيئا لا يعدو أن
يكون هينا تماما وأيسر من اليسر ، فقد طارت منهــا
آخر الامر أن تصبح زوجتى ، موقنا من القبول لتوى ..
وبدلا من هذا ، وجدتنى أواجه برفض تشوبه الدهشة ،
وكأننى اذ تقدمت بهذا المطلب قد تجاوزت قانونا خفيامن
قوانين الأخلاق الفاضلة .. وبهذا الرفض شعرت بأننى
وصلت الى أسود أعماق يأسى السالف .. فتركتها وأنا
أفكر تفكيرا مشوشا أنه لم يبق لى شىء وأننى اذا لم أكن
جبانا فقد حان الوقت لكى أقتل نفسى .. ومضت أيام،
وعندئذ اتصلت بى تليفونيا وسألتنى بدهشة لماذا لم
أحضر لزيارتهــا .. فذهبت ورحبت بى بطريقتهــا
الحلوة ولكن مع توبيخ جرىء بأننى هجرتها ولم أترك لها
وقتا للتفكير .. واختتمت كلماتهاقائلة بأنها على أى حال
تقبل أن تكون زوجتى .. وفى خلال أسبوعين اثنين تم
زواجنا ..
وبدأت بذلك فى الحال فترة سعادة تامة لم أعرف

مثلها فى حياتى ٠٠ لقد احببت ليدا حبا حارا عنيفا ٠٠ ومع ذلك فاننى فى نفس الوقت كنت خائفا أن اكف عن حبها أو تكف هى عن حبى ٠٠ وهكذا رحت أحاول بكل وسيلة ممكنة ان أمزج حياتى وحياتها معا وان أقيم روابط توثق بيننا ٠٠ ولما كنت أعلم أنها جاهلة ، فقد اقترحت عليها برنامجا للتعليم الجمالى من فن وشعر وموسيقى ، مبينا لها أنها سوف تجد من المسرة فى التعلم مثل مسرتى فى تلقينها ٠٠ واكتشفت ، على غير انتظار قط ، أنها كانت سهلة القياد ومعقولة بصورة غير عادية .. ورسمنا باتفاق مشترك بيننا ، خطة وجدولا زمنيا لدراستنا ، وتعهدت أن أنقل اليها وان أجعلها تقدر كل شيء كنت أنا أعلمه وأميل اليه ٠٠ ولست أدرى مدى متابعتها لى أو مبلغ فهمها لما كانت تتلقاه ، ولعله كان أقل مما كنت أظن .. ولكن طبقا لمألوف طبعها ، وبسبب ذلك السلطان الخفى الغريب الذى اتسق لها ، فقد أحسست أننى ظفرت بنصر كبير عندما كنت أسمعها تقول لى ببساطة ، « اننى أحب هذه القطعة الموسيقية ٠٠ ان هذه القصيدة جميلة ٠٠ أعد قراءة هذا الموضوع ٠٠ لنسمع هذه الاسطوانة مرة ثاينة » ٠٠ وفى نفس الوقت ولكى نشغل ساعات فراغنا ، فقد رحت أعلمها اللغة الانجليزية ٠٠ وفى هذا فانها أبدت تقدما مطردا ، اذ كانت لها ذاكرة جيدة وميل طبيعى ٠٠ ولكن هذه المطالعات والشروح والدروس جميعا بدت محببة جذابة قيمة فى نظرى بسبب رقتها الدائمة ومودتها الحانية ونيتها الصادقة ٠٠ ذلك وان شعرت رغم أنها كانت هى التلميذة وانا المعلم ، كما يشعر التلميذ الهياب المتخوف وهو يتقدم ببطء فى استيعاب موضوعات الدرس والتحصيل ٠٠ ولم يكن فى ذلك حرج ولا غضاضة ، ذلك

لان الهدف الحقيقى من الدراسة بيننا كان هو الحب ، وقد بدا لى فى كل يوم يمضى اننى أزيد امتلاكا لناصيته وتحكما فى زمامه ..

وحقا فانه برغم كل شيء كانت القاعدة الراسخة لسعادتنا هى حياتنا العاطفية ، التى كانت شيئا قائما بذاته بصرف النظر عن الهوايات الفنية التى كنا نتقا سمها .. ولقد اسلفت القول بان جمالها ، الذى كانت تشوبه احيانا تقلصات والتواءات قبيحة ، كان عنصرا نادر المثال فى سعادتنا الزوجية .. ولى أن أضيف الى هذا أن الاستمتاع بهذا الجمال قد أصبح الان النقطة المركزية التى كانت تدورحولها دوامة حياتى ، التى كانت من قبل سوداء مهددة بالخطر ، فأضحت الان مشرقة ، وادعة ، جذابة ، منتظمة .. ولطالما كنت أتأمل مفاتنها الجسدية فيخامرنى شعور أقرب الى الخوف من رؤيتها بهذا الجمال المفرط الذى يتحدى كل وصف وتعريف .. وكم حدقت فىعينيها الزرقاوين الكبيرتين ورحت اتساءل اين يكمن سر حلاوة نظراتها التى يشوبها القلق .. وما أكثر مارحت بعد تقبيلها قبلات طويلة مضطرمة ، احلل ذلك الاحساس المتبقى على شفتى من أثر القبلات ، واقارنه ، بطبيعة شفتيها، مؤملا ان اتغلغل الى مغزى تلك الابتسامة اليسيرة المتقادمة التى كانت تبدو ظاهرة بعد القبلة فى زاويتى فمها الكبير القوى ، وهى نفس الابتسامة التى ترى مرتسمة فى التماثيل الاغريقية المتقادمة العهد ، .. اننىوجدت عن كثب منى لغزا كبيرا فى عمقه وخفائه وكأنه أقرب الى الغاز الديانات والعبادات القديمة ، كانت عيناى وعقلى وأنا الخبير بالجمال ، وتحليله تغنيان فى النهاية وتلتمسان السكينة وكلتنى فى فضاء ساحر لا نهائى .. وقد بدا انها ادركت

كل الاهمية التى كان يهيؤها لى مثل هذا الافتتان بالجمال والتعبد له والفناء فيه ، فكانت تترك نفسها على سجيتها لكى تغدو مناط المحبة ، وهى فى ذلك طيعة واعية ، كما كانت تفعل بنفسها وهى تترك نفسها لى معلما ومثقفا ٠

وربما كان يجدر بى وأنا فى ابان هـــذه السعادة الغامرة أن التزم جانب الحذر ازاء مظهر معين فى طباع زوجتى ومسلكها ، وهو المظهر الذى أظن اننى اسلفت ذكره واعنى به عنصر المجاراة ٠٠ فى شخصها لم يكن الحب ذاتيا وطبيعيا مثلما كان فى شخصى ٠٠ كان باديا فى مسلكها رغبة لا شك فيها وان كانت خفية لارضائى ولاسعادى واحيانا لارضاء كبريائى الذاتية ٠٠ وهذا ما عنيته بعنصر المجاراة ٠٠ ان شعور المجاراة عسير ان يخفى شيئا اذا هو تبدى مصادفة كان مناقضا له وجالبا للضرر على نتائجه ٠٠ وهو شىء يتراوح بين مجرد وجود شواغل مخاتلة مخفاة وبين المخادعة والخيانة الفعليتين ٠٠ ولكننى تقبلت مجاراتها لى كبرهان على حبها لى ، ولم اقلق نفسى ، فى ذلك الحين ، بالبحث فيما يمكن أن يخفيه هذا الشعور أو فيما قد يكون معناه . . كنت فى الواقع من فرط السعادة بما جعلنى اقرب الى الانانية والانصراف عن كل شىء آخر غير ما أنا به هانىء سعيد ٠٠ فقد تيقنت لاول مرة فى حياتى اننى محب وفى غمرة حماستى المألوفة الاقرب الى الاستهانة والطيش ، عزوت اليها نفسى مشاعر الحب التى ملكت على عقلى وخلبت وجدانى ٠٠

الفصل الرابع

لم اتحدث الى زوجتى بتاتا عن مطامحى الادبية لاننى كنت اشعر انها لن تستطيع فهمها قط ، وكذلك لاننى خجلت من ان اضطر الى الاعتراف بانها مجرد مطامح ، او بالاحرى محاولات غيرمجدية لم يقدر لها حتى الان ان تكلل بالنجاح ٠

فى تلك السنة امضينا فصل الصيف على شاطىء البحر ، وحوالى منتصف شهر سبتمبر بدأنا نناقش خططنا لتمضية الخريف والشتاء .. ولست أدرى كيف المحت لها الى جهودى المجدية ٠٠ ولعلى أشرت فى احاديثى الى فترة الخمول الطويلة التى افضى بى الزواج اليها ٠٠ فما كان منها الا أن هتفت تقول لى ، « لكن كيف حدث يا سيلفيو انك لم تخبرنى بهذا ابدا » ٠٠ فقلت لها اننى لم أتكلم قط فى هذا الموضوع لاننى حتى تلك اللحظة على الاقل لم اوفق بتاتا فى كتابة شىء يستحق الذكر ٠٠ وقد أدركت من فورى أن اهتمامها كان فيه اطراء كبير لى وانه بمضى الوقت يصبح رأيها وله من القيمة والاهمية عندى ما للادباء المحترفين ان لم يجاوز هذا القدر ٠٠

كنت اعلم تمام العلم انها غير مثقفة ، وان تذوقها للادب لا يمكن التعويل عليه ، وان تحبيذها أو استهجانها يمكن أن تكون لهما قيمة ووزن ·· ومع ذلك فقد شعرت انه سوف يكون بيدها ان اتابع الكتابة او لا اتابعها ·· وعندما الحت ، تظاهرت بالمعارضة فترة قصيرة ، ثم لم البث أن حذرتها مرارا من أن الاشياء التى كتبتها لم تكن ذات قيمة واننى بذاتى أعرضت عنها ـ لم البث أن وافقت على أن أقرأ لهـــا احدى قصصى القصيرة التى كتبتها منذ سنتين .. وفى قراءتى للقصة بدا لى انها ليست من الرداءة بما رايت من قبل .. وهكذا جعلت اقرأ بثبات أشد ولهجة اكثر تعبيرا وانا اختلس النظر اليها وهى تنصت الى باهتمام ، وان كانت لم تبد أدنى دلالة تنم عن التأثير المتولد فى نفسها .. وعندما فرغت من القراء القيت الصفحات جانبا وهتفت أقول لها :

ـ اننى كنت على حق ، كما ترين ·· انه شىء لا يستحق الكلام عنه ·· وجعلت انتظر رأيها وقد تملكنى قلق غريب ··

فأخلدت الى الصمت برهة ، وكأنما تســتجمع انطباعاتها ، ثم لم تلبث ان اعلنت رايها بلهجة قاطعة قائلة أننى أخطأت خطأ كبيرا فى عدم اسناد اية أهميه لموهبتى ··

وقالت انها استطابت القصة رغمان بها عيوبا كثيرة ، وعددت جملة من الاسباب لكى تفسر وتبرر رضاها ..

لم يكن ما قالته رأى ناقد خـــبير (وكيف يمكن أن يكونه) ولكننى رغم ذلك شعرت على نحو غريب بمـــا شجعنى ··

لقد بدا لى ان الاسباب التى ساقتها ، وكانت فى الحق صادرة عن شخصية عادية ذات اذواق عادية ، قد

لتضارع فى قيمتها رأى خاصة الادباء ، وإنى برغم كل شىء قد أكون مسرفا فى النقد الذاتى ، وهو ما يكون اشد منه ضررا منه نفعا ، وان ما كان يعوزنى حتى الان فى الواقـــع لم يكن عمق الموهبة بقـــدر ما كان التشجيع المتعاطف كالذى راحت الان تغدقه على ٠٠

ان النجاح يقترن دائما بطابع الزيف والمذلة فى نطاق اسرة المرء ، وبين الناس الذين تدفعهم مودتهم الى التساهل والتحيز ٠٠ فالام والاخت والزوجة علــى استعداد دائما لكى يقروا لنا بالعبقرية التى ينكرها علينا الاخرون فى عناد ، ولكن فى نفس الوقت فان اطراءهم لا يرضينا ، واحيانا نعزو اليهم أنهم أكثر مرارة منهم الى النقد الصريح .. اننى لم اشعر بشىء من هذا مــع زوجتى ٠٠ لقد بدا الى أنها استطابت القصة ، بصرف النظر تماما عن المودة التى تكنها لى ٠٠ وفضلا عن ذلك فان اطراءها قامعلى التبصر والتعقل الى الدرجة التى لم يبد فيها نوع من الشفقة ..

قلت لها فى النهاية وأنا أقرب الى الاشفاق :

ـ حسنا ٠٠ هل تظنين حقا أن استمر وأثابر ؟ ٠٠ فكرى جيدا فيما سوف تقولين ٠٠ اننى لبثت اعمل مدى عشر سنوات على الاقل دون أية نتائج . اذا قلت لى أن استمر فسوف أستمر ٠٠ لكن اذا قلت لى أن أكف ، فسأكف ، ولا المس القلم بعد ذلك ٠

فضحكت وقالت :

ـ انك تضع مسئولية كبرى على اكتافى ٠٠

فقلت باصرار :

ـ تكلمى وكاننى لست ماانا بالنسبة اليك،بل انسان غريب عنك ٠٠ قولى ما تفكرين فيه بالضبط ٠٠

فأجابت قائلة ،
ـ لكنى قلت لك رأيى ‥ يجب أن تستمر ‥
ـ حقا ؟
ـ نعم حقا ‥
ولزمت الصمت برهة ، ثم اضافت قائلة :

ـ الان انظر ‥ لنفعل هذا ‥ بدلا من العودة الى روما ، لنذهب لتمضية شهر أو شهرين فى الفيللا فى توسكانى .. بامكانك انتستقرللكتابة هناك ، واناواثقة انك سوف تكتب شيئا جيدا فعلا ‥

ـ ولكن أنت ؟ انك ستتضايقين وتملين ‥

ـ وكيف ؟ أنك ستكون هناك معى .. وفضلا عن ذلك فان هذا سوف يكون تغييرا بالنسبة لى ‥ لقد مرت سنوات كثيرة لم اعش فيها حياة الهدوء ‥

ولابد لى من الاعتراف بان ما دفعنى الى الاقتناع لم يكن منطقها ولا تشجيعها بقدر ما كان نوعا من الايمان بالخرافات ‥ لقد رأيت لاول مرة فى حياتى وكأن نجما وطالعا سعيدا يطل على ويرعانى ، وقلت لنفسى انه يجدر بى أن أعاون بكل كيفية ممكنة فى تأكيد هذا الفأل الطيب الذى بدت تباشيره تحالفنى ‥ ففى زوجتى قد وجدت الحب الذى طالما تطلعت وصبوت اليه عبثا سنين طويلة ‥ ولعل الحب ان يأتى فى اثره الان ويعقبه خلق ادبى ‥ لقد شعرت اننى اسير فى الطريق السوى ‥ وان الثمار الطيبة المباركة لالتقائنا مازالت تؤتى أكلها ‥ وهكذا عانقت زوجتى ‥ وقلت لها ممازحا انها منذ الان سوف تكون (موزيتى) ولم يبد انها فهمت هذا الاسم ولا عرفت انه احدى الالهات التسع الشقيقات اللواتى يحمين

الغناء والشعر والفنون والعلوم فى الاساطير الاغريقية ، وانما سألتنى مرة اخرى ما هو قرارى ..

فقلت لها اننا سوف نذهب الى الفيللا طبقا لاقتراحها فى خلال أيام قلائل

وفعلا بعد أسبوع واحد غادرنا ساحل الريفيرا وقصدنا الى مقاطعة توسكانى ..

الفصل الخامس

كانت الفيللا قائمة فى واد اسفل منطقة جبلية متوسطة الارتفاع ، وتواجه سهلا منبسطا ممتدا تكسوه المزروعات ‥ ويحف بالفيللا متنزه صغير امتلا باشجار مورقة ، الى حد ان الانسان لا يستطيع ان يبصر من داخل الفيللا ، حتى من نوافذها العلوية ، اى مشهد على الاطلاق ، حتى ليظن انه ليس على مشارف واد تتناثر فيه المزارع وتشقه الحقول ، بل فى اعماق غابة كثيفة مترامية ، فى عزلة تشبه صومعة ‥ وعلى مسافة غير بعيدة من الفيلا قرية كيرة ‥ وأقرب بلدة كانت على مسيرة ساعة على متن عربة وجواد ، وهى على قمة احد التلال القائمة فيما وراء الفيللا ‥ وكانت بلدة عتيقة يرجع عهدها الى العصور الوسطى ، تحف بها اسوار ذات ابراج وبها كنائس وقصور وأديرة ومتاحف ‥ ولكن كما كان الواقع فى مقاطعة توسكانى ، فان البلدة كانت اشد فقرا من القرية الحديثة الخالية من المعالم الجمالية والتى نشأت وازدهرت بفضل التجارة ‥

وقد شيدت الفيللا منذ حوالى مائة سنة ، اذا قدر الانسان عمرها من ارتفاع وحجم الاشجار القائمة فى

المتنزه .. وكانت مبنى بسيطا عاديا مؤلفا من ثلاثة طوابق وثلاثنوافذ فى كل طابق. .وامام الفيللا مساحة مكشوفة مكسوة بالحصى تظللها شجرتا كستناء ·· ومن هذه الساحة تفرع طريق متعرج يؤدى الى بوابة المتنزه والى ما وراءه حتى السور القديم المحيط بالمتنزه الى الطريق العمومى ·· وكان المتنزه كما قدمت ، صغيرا فى مساحته ولكنه متكاثف الشجر ملىء بالاركان الظليلة ·· وكانت حدوده غير واضحة الا فى جانب واحد ، أما فى الجوانب الاخرى حيث لا اسوار نباتية ولا خطوط تقسيم معينة ، فان الاشجار المتكاثفة كانت تمتد حتى تختلط بالفضاء الفسيح للحقول المزروعة ·· وكانت ملكية الفيللا تضم مزرعتين ، قامت مبانيهما عند طرف المتنزه فوق تل يستطيع الناظر ان يستجلى منه مشهد الوادى المنبسط الارجاء ·· ومن ناحية الفيللا كان الانسان يسمع ، دون أن يرى ، اصوات الفلاحين فى الحقول المجاورة وهم يستحثون ثيرانهم ، وكثيرا ما كان دجاجهم يتنقل فى كافة أرجاء المنتزه ملتقطا الحب حتى باب الفيللا الامامى ··

وفى الداخل كانت الفيللا مكدسة باثاث قديم كان يتمثل فيه كل طراز من القرن الماضى ، ابتداء من عصر الامبراطورية حتى عصر الفن الحديث ·· وآخر سكان الفيللا وهى جدتى لامى توفيت فيها عن مائة عام ، بعد ان جمعت فيها بحرص وصبر النملة اثاثا يكفى لملء بيت آخر من حجم الفيللا ·· وكانت الغرف تشتمل على ضعف الاثاث الذى يلزمها ·· وكانت غرف النوم فسيحة قائمة ، بها أسرة من ذات الاعمدة الاربعة ودواليب شاهقةكثيرة الادراج ، وصور عائلية ·· وكانت الفيللا تضم الى هذا عددا لا حصر له من غرف الجلوس ، وقاعة مكتبة مليئة

بالرفوف ذات الكتب القديمة اغلبها ذو طابع دينى ، الى جانب مجموعة من التقاويم والمجلات ، بالاضافة الى حجرة بلياردو مهجورة خلوة من ادواتها فيما عدا المنضدة ولا يستطيع الانسان أن يتحرك الا بصعوبة بين كل هذا الحشد المكدس من الاثاث العتيق ، ولم يكن ثمة مكان خال فى اى موضع ، وكأن حشود الاثاث كانت هى سكان الفيللا الحقيقيين ونحن مجرد دخلاء ·· ومهما يكن فاننى قد افلحت فى اخلاء غرفة جلوس الطابق الارضى اخلاء جزئيا واعدت طابعها الى طراز عهد الامبراطورية ، وفيها اتخذت مكتبى الخاص ·· واخترت انا وزوجتى غرفتى نوم لكل منا غرفة ، وخصصت زوجتى غرفة الجلوس فى الطابق الارضى لتكون غرفة جلوس لها ، ووضعت بها المقعدين ذى المسندين ، فكانا المقعدين الوثيرين الوحيدين فى البيت ··

ومنذ يومنا الاول بدأنا حياة كانت منتظمة كل الانتظام وكأنها حياة فى دير مجد ·· ففى الصباح كانت الخادمة العجوز تحمل صحفة الطعام الى غرفة زوجتى ، حيث نتناول الافطار معا وهى جالسة فى الفراش وانا قرب السرير ·· ثم اتركها بعد ذلك واذهب الى غرفة مكتبى فاجلس الى المكتب واعمل ، أو على الاقل احاول العمل ، حتى اظهر ·· وفى هذه الاثناء تتمدد زوجتى فى فراشها بعض الوقت ، ثم تنهض وتأخذ فى اعداد زينتها طويلا وبعناية بالغة ، وفى فترة ارتدائها للملابس تبلغ الطاهية أوامرها لطعام اليوم ·

وحوالى الظهر اترك عملى واهبط الى الطابق الارضى ، حيث تكون زوجتى فى انتظارى ·· وكنا نتناول طعامنا فى غرفة مائدة صغيرة أمام شرفة كبيرة تطل على

المتنزه ‥ وبعد الغذاء كنا نشرب القهوة فى الخارج ، فى ظل شجرة الكستناء ‥ وعندئذ يصعد كلانا الى غرفته طلبا لبعض الراحة ، ثم نلتقى مرة أخرى لتناول الشاى فى غرفة الجلوس فى الطابق الارضى ٠

ولم تكن ثمة أماكن كثيرة نتجول فيها ‥ ان توسكانى كلها اقرب الى حديقة وان كانت بلا مقاعد ولا مماشى ، منها الى الريف الطليق ‥ وهكذا كنا نتجول سيرا فى الدروب المتعرجة الممتدة عبر الحقول من مزرعة الى أخرى ، أو على ضفة القناة المعشوشبة التى تشق الوادى كله من اقصاه الى اقصاه ، أو على امتداد الطريق الرئيسى ولكن دون ان يمتد بنا السير الى القرية أو البلدة ‥

وعندما كنا نعود من جولتنا التى لم تكن تدوم أكثر من ساعة ، كنت اعطى زوجتى درس اللغة الانجليزية ، فاذا بقى وقت قرأت لها بصوت مسموع أو جعلتها تقرأ على ‥ وبعد ذلك نتناول طعام العشاء ، او نقرأ مرة أخرى أو نتجاذب اطراف الحديث ‥ وفى النهاية نأوى الى غرفتى النوم فى وقت غير متأخر ، أو بالاحرى أتبع زوجتى الى غرفتها ‥

كانت هذه لحظات سعادتنا الزوجية ‥ وفى الليل الريفى الذى كان يطل علينا من خلال النوافذ المفتوحة ، والذى لم يكن يبدد سكونه العميق على فترات متباعدة سوى صرخة طير ، وفى أجواء تلك القاعة الشاهقة المعتمة ، كان حبنا يتفجر مشتعلا ثم يمتد صامتا كأنه لهب المصابيح الزيتية العتيقة التى كانت من قبل تضىء تلك الغرف القاتمة ٠

لقد شعرت حقا اننى أزيد حبا لزوجتى كل يوم ، حتى لكأن أحاسيس كل ليلة تغذى نفسها وتستمد قوتها من

مناصر الليلة التى قبلها ، وبدت هى نفسها وكأنها معين فياض لا ينضب منه الحب والسعادة ·· وفى تلك الليالى بدا لى اننى ادرك لاول مرة فىحياتى وربما لاخر مرة ، المعنى الصحيح للحياة الزوجية المشبوبة العاطفة وما تتضمن من استحواذ أكيد لا حدود له ·· للمرة الاولى فهمت ما يقصده بعض الرجال طيشا عن معنى التملك والاستحواذ فى العلاقة الزوجية ، عندما يقولون (زوجتى) بنفس الكيفية التى يقولون بها (بيتى) او (كلبى) أو (سيارتى ·)·

ومن ناحية أخرى فان الشيء الذى لم يسر سيرا طيبا وكما يرام ، رغم ان الظروف كانت جد مواتية ، هو عملى ·· كانت فكرتى تقوم على تأليف قصة طويلة أو رواية قصيرة ، واخترت موضوعا لها استهوانى أشد استهواء وهو قصة زواج ·· كانت بالاحرى قصتنا ، قصة زوجتى وانا ، وقد شعرت أن الموضوع كله ماثل فى ذهنى ، مقسم الى حلقات منفصلة واضحة المعالم،يمكن ملء فراغها باتم يسر وسهولة ··

بيد اننى عندما كنت اجلس أمام الورق وأبدأ فى محاولة الكتابة ، كان الموضوع يختلط اختلاطا كبيرا ، ويتعقد ايما تعقيد .. كانت الورقة تمتلىء تكلمات وعبارات يكثر فيها الحذف ، أو أمضى قدما فى كتابة صفحة أو اثنتين ثم ادرك اننى كنت أرص مجموعة من العموميات المبهمة والعبارات المفتقرة الى المعانى الراسخة ·· أو بعدما اكتب السطور القليلة الاولى أتوقف وابقى جامدا ومستغرقا أمام الصفحة البيضاء ، يبدو منى وكأننى افكر تفكيرا عميقا ، ولكننى اكون فى الواقع خاوى الرأس متوقف التفكير ··

ان عندى ملكة راسخة فى النقد ، وقد لبثت سنوات وانا أكتب مقـالات نقدية فى الصحف والمجـلات .. واذن فلم يطل بى الوقت حتى تحققت أن عملى لا يصادف فقط اى تقدم ، ولكنه كذلك يتطور الى أسوأ مما كان ..

من قبل كان فى مقدورى تركيز ذهنى فى موضوع معين وتطويره ، ان صح هذا التعبير ، بكيفية منتظمة ، والتزام نمط من الوضوح والبيان تتسم به كتابتى .. اما الان فقد رأيت ان ما يخوننى ليس هو المادة فحسب ، بل هو أيضا تمكنى السالف من ناحية البيان .. فوق كل شىء ادركت بوضوح ان ما كان يعوزنى هو الائتلاف الفنى ، أعنى روح التناسق التى هى عماد عملية تطوير الفكرة فى مجال النثر ، كما أن القافية هى عماد الشعر .. لقد تذكرت اننى تملكت من قبل ذلك الائتلاف الفنى ، بقدر متواضع ولكنه كاف ، بيد انه حتى هذا قد هجرنى الان وتخلى عنى ، وكذلك كنت اتعثر واتلجلج ، وابدد نفسى فى خليط متخمر من المتنافرات والصخب ..

وربما كان ينبغى ان انفض يدى من التاليف تماما ، منذ كان الحب الذى اشعر به لزوجتى كافيا لسعادتى لولا انها هى التى جعلت تحفزنى وتستحثنى الى المثابرة .. اذ لم يمض يوم حتى تسألنى باهتمام وانشغال عن المراحل التى قطعتها فى التأليف .. وكنت اخجل من الاعتراف بان عملى لا يتقدم خطوة واحدة ، واجيبها على نحو اقرب الى الغموض بانه يتقدم باطراد ..

لقد بدا انها تعلق أهمية كبرى على هذا العمل ، وكأنه كان شيئا هى مسئولة عنه ، حتى كنت اشعر شعورا متزايدا كل يوم اننى مطالب لا لنفسى بل لها ، باتمام تأليف القصة .. كان هذا برهانا على الحب ينبغى لى أن اقدمه اليها ، دلالة على التحول العميق الذى أوجده

ظهورها فى حياتى ·· وكان هذا هو ما عنيته عندما عانقتها وهمست فى اذنها بانها منذ ذلك الوقت سوف تكون (موزيتى) الملهمة .. انها بهذا السؤال اليومى عما اتممت من عمل فى صباح يومى ، قد احالت الامر ، دون وعى منها ، الى ان يكون ارتباط شرف بالنسبة الى ، فكانت فى هذا اشبه بسيدات الاساطير اللاتى كن يطلبن الى الفارس ان يذبح الوحش ويعود اليهن بجـزته الذهبية ·· ولم يتواتر قط فى هذه الاساطير ان الفارس الضرغام قد خنع وعاد خاوى الوفاض معترفا بانه عجز عن ايجاد الجزة وانه لم تواته الشجاعة لمـواجهة الوحش ! ·

والحق ان ميثاق الشرف هذا قد اتخذ مظهرا اخطر بسبب طبيعة الحاحها الذى لم يكن صادرا عن امرأة مثقفة عليمة بعناء الجهد العقلى ، بل عن امرأة جاهلة ساذجة تتصور ان الكتابة ليست بعد كل شىء سوى مسألة سهلة تقوم على الارادة ·· والتطبيق ·· والممارسة

ومرة حاولت فى جولاتنا اليومية ان استرعى نظرها الى المصاعب الكثيرة والاستحالات غير القليلة فى عملية الخلق الادبى ·· لكننى رأيت على الفور انها لم تستطع ان تفهمنى ، اذ قالت بعد ان استمعت الى كل ما كان على ان أقوله :

ـ أنا لست مؤلفة ، وليست لى مطامح ادبية ·· لكن لو اننى كنت كذلك لوجدت اشياء كثيرة اقولها ·· وفى ظروف العمل المتاحة لك هنا ، فانا واثقة اننى كنت استطيع ان اقول هذه الاشياء بصورة طيبة ·

ثم صوبت الى برهة نظرة جانبية ، ولم تلبث ان اردفت تقول بدلال رصين :

ـ تذكر انك وعدت ان تؤلف قصة تكون شخصيتى

فيها ٠٠ والان لابد لك ان تفى بوعدك ٠٠

فلم اقل شيئا ، لكن لم يسعنى الا أن افكر غاضبا فى الصحائف الكثيرة الطافحة بالحذف والاضافات المحشورة المكدسة على مكتبى ٠٠

وكنت قد لاحظت أننى فى الصباح ، بعد قضاء الليلة او شطر منها مع زوجتى ، اذا جلست الى مكتب شعرت بميل غلاب لكى اترك ذهنى يشرد ولا يعمل شيئا ٠٠ كان رأسى يبدو خاويا ، وينتابنى شعور غريب بالخفة في مؤخرة عنقى وافتقار الى التماسك والصلابة فى اطرافى ٠٠ ان ارتباطنا المعنوى بعضنا مع بعض يكون أحيانا شديد الغموض ٠٠ لكن ليس هكذا الارتباط الجسدى ، الذى تتبدى آثاره واضحة ٠٠ والواقع ان الامر لم يستغرق منى كثير وقت ولا تفكير حتى استخلصت ، ان صوابا أو خطأ ان هذا العجز عن العمل وهذه الاستحالة لتركيز ذهنى فى الموضوع وهذا لاغراء بالكسل ــ لابد أن يعزى كله الى الاستنزاف البدنى الذى كان يحدث لى دائما بعد سهرة الليلة الفائتة .. واحيانا كنت انهض عن مكتبى وانظر الى نفسى فى المرآة : فى ارتخاء عضلات وجهى المجهدة وفى الدوائر القاتمة تحت عينى وتعبيرهما الخامد ، وفى الركود الواهن فى حالتى كلها ـ فى هذا كله كنت اعرف انعدام القوة والنشاط اللذين كنت الابسهما قبل بدء السهرة .. هكذا أدركت اننى لم امض فى عملى بعزم ولم تجد قريحتى بما كنت أرجو لاننى استنفذت قواى فى الليلة السالفة ٠٠ تأكدت ان ما كنت امنحه فى الحب كنت اسلبه بنفس القدر من عملى..شعرت أن قوتى الخلاقة كانت تستنزف منى كل ليلة ، ولا يبقى لى فى اليوم التالى ما يكفى لانعاش ذهنى وشحذ تفكيرى ٠٠

هكذا قررت بعد أن استبد بى هذا التفكير وغدا لونا من الاستحواذ يسيطر على عقلى ان افاتح زوجتى فى الموضوع ·· وقد شجعنى على الاقدام على هذه الخطوة انها كانت هى التى اغرتنى بالعمل واستحثتنى على مداومة التأليف ، وانه اذا كان هذا العمل ذا أهمية لديها ولابد من تأليف القصة ، فانها سوف تفهم وتقبل الاعذار والملابسات ·

وفى ضجعتنا جنبا لجنب قلت لها :

ــ اصغى الى ·· لابد ان أقول لك شيئا لم أقله لك من قبل بتاتا ·

فقالت وهى تتطلع الى بنظرتها القلقلة المراوغة التى عهدتها منها :

ــ تكلم ··

فاستطردت أقول :

ــ المسألة هكذا ·· هل تريدين منى ان اكتب هذه القصة ؟

ــ أريد بكل تأكيد ·

ــ هذه القصة التى تدور حولك وحولى ؟ ·

ــ نعم ·

ــ اذا سارت الامور كما هى الان ، فانى لن انجح ابدا فى كتابتها ·

ــ ماذا تقصد ، بسير الامور كما هى الان ؟ ·

فترددت . . ثم قلت ؟

ــ اسمعى ·· اننا نتبادل الحب كل ليلة ، اليس كذلك ؟ · لا بأس اننى أشعر ان كل القوة التى احتاج اليها لكتابة القصة تستنزف منى عندما أكون معك ·

واذا استمر الحال هكذا فلن اكون قادرا على كتـــابة القصة ٠

فنظرت الىبعينيها الكبيرتينالزرقاوين ، اللتينزادت حدقتاهما اتساعا ولاشك بعد ان فهمت قصدى وقالت :

ــ لكن كيف يفلح المؤلفون الاخرون فى الكتابة ؟

ــ لا أعرف كيف يفلحون ٠٠ لكننى اتصور انهم على اى حال يلتزمون العفة فى فترة الكتابة ٠

فقالت :

ــ لكن الشاعر دانونزيو ٠٠ سمعت انه كان لـــه عشيقات كثيرات ٠٠ فكيف كان يفلح فى كتابته ؟

فاجبت قائلا :

ــ لا اعرف ان كانت له تلك الكثرة من العشقيات ٠٠ ان ماكان له هو عدد قليل من عشيقات مشهورات كان الكل يتحدثون عنهن ، وهو نفسه أكثرهم حديثا ٠ ولكن فى رأيى انه كان يرتب حياته جيدا .. هناك مثل عندنا فى شخص الشاعر الفرنسى بودلير ، الذى اشــتهر بعفته ٠

فلم تقل شيئا وشعرت ان كل منطق كان أقرب الى ان يكون مضحكا بصورة أليمة ، لكننى بدأت الان ، ولابد ان أمضى الى النهاية . فقلت لها بلهجة رقيقة متحببة :

ــ انظرى ٠ اننى غير مصمم على كتابة هذه القصة ولا على ان أصبح مؤلفا ٠ اننى سوف اتخلى عنها بكل بساطة ٠٠ ان المهم عندى هو حبنا ٠

فأجابت على الفور :

ــ لكننى أريدك أن تكتبها اريدك مؤلفا .

ــ لماذا ؟ ٠

فأجابت بشىء أقرب الى الارتباك وفى لهجة أدنى الى الاستياء :

ـ لانك مؤلف قبل ذلك . اشعر ان عندك الكثير مما يمكن ان تقوله .. وفضـــلا عن ذلك لابد لك أن تعمل ، مثل اى انسان أخر ·· لا يمكنك ان تحيا حياة الكسل وتقنع بانك تحبنى · يجب ان تصبح شخصا ما ·

هكذا كانت تتعثر فى كلماتها وكان واضحا انها لم تعرف كيف تفصح عن رغبتها العنيدة فى أن ترانى اقوم بما تريد ان أقوم به ·

قلت لها ، وان شعرت هذه المرة انى اكذب :

ـ لا حاجة بى لكى اصبح مؤلفا · بامكانى بكل سهولة الا افعل اى شيء · او يمكنى ان استمر افعل ما فعلته حتى الان · اقرأ ، وافهم واقيم واعجب بمؤلفات الكتاب الاخرين ·· ثم أحبك ·· او فى استطاعتى لكى لا أكون كسولا كما قلت ، ان اختار لى مهنة أخرى او شيئا يشغلنى ·

فسارعت تقول وهى تهز راسها بل جسدها وكأنما تريد تأكيد رفضها بكل ذاتها :

ـ لا · لا ·· لا · لابد ان تؤلف · لابد ان تصبح مؤلفا ·

خيم علينا الصمت برهة ·· ومالبثت أن قالت :

ـ اذا كان ما قلته صحيحا ·· اذن فيجب ان نغير كل شيء ··

ـ ماذا تقصدين ؟ ··

ـ يجب ان نكف عن الحب منذ الان الى ان تنتهى من قصتك ·· وبعد ذلك عندما تنتهى نستأنف من جديد ·

ولابد لى ان اعترف اننى شعرت من فورى باغراء لقبول هذا الاقتراح الغريب والمضحك أيضا · ان الفكرة التى تسلطت على نفسى من قبل مازالت قوية ملحة وقد

جعلتنى آنسى ما وراء هذا من الانانية والضلال ·

بيد اننى كتمت هذا الشعور فى نفسى ، وعانقتها قائلا ،

ـ انك تحبيننى وهذا الاقتراح منك هو اعظم دليل على الحب الذى بامكانك ان تمنحيه لى · لكن مجرد ابدائك للاقتراح يكفينى ·· فلنستمر فى حبنا ولا نفكر فى شىء غيره ·

فقالت بلهجة الامر وهى تدفعنى عنها :

ــ لا .. لا .. هذا ما يجب أن نفعله .. خصوصا بعد أن صارحتنى .

ــ هل انت متضايقة ؟

ــ عجبا لك ياسيلفير ! .. لماذا أتضايق ؟ .. اننى اريد صدقا ان تكتب هذه القصة ·· وهذا كل مافى الامر ·· لا تكن ابله ··

قالت هذا وطوقتنى بذراعيها وكأنما تريد أن تؤكد الطبيعة المخلصة لالحاحها ولبثنا على هذه الحال بعض الوقت أنا أدافع عن نفسى وهى تلح وتصر آمرة لا تنثنى وفى النهاية قلت لها :

ــ لا بأس .. ساحاول . ربما كان هذا كله غير صحيح ، واننى ببساطة شخص بلا موهبة ادبية ·

ـ هذا غير صحيح ياسيلفيو وانت تعرف ذلك ·

فتحاملت على نفسى قائلا :

ـ لا بأس اذن ·· كما تحبين ··· لكن تذكرى ان هذه رغبتك ·

ـ بالطبع ··

ولزمنا الصمت حينا ·· ولم البث ان ابديت حركة وكأننى أهم بمعاقبتها بيد انها دفعتنى عنها قائلة :

ـ لا ·· منذ هذه الليلة فصاعدا يجب ان نكف عن هذا ·

وضحكت .. وما لبثت وكأنما لكى تلطف من مرارة رفضها ، ان أخذت وجهى بين يديها الطويلتين النحيلتين بترفق كما يمسك الانسان بزهرية ثمينة وقالت :

ـ سوف ترى الان ·· سوف تكتب كل انواع الاشياء الجميلة .. أنا متأكدة من هذا .

وتفرست فى وجهى مليا ثم أردفت بلهجة غريبة :

ـ هل تحبنى !؟

فقلت بتأثر عميق :

ـ لا حاجة بك الى توجيه هذا السؤال الى ··

ـ حسنا .. سوف أكون لك مرة أخرى فقط عندما تقرأ لى القصة ·· تذكر هذا ··

ـ لابد ان تكون عندك القدرة ··

كانت متسلطة ، وهذا التسلط من جانبها على مافيه من سذاجة وقلة خبرة ، ولكنه مع ذلك صلب قد راقنى بصورة غريبة ·· ولم اتمالك ان فكرت مرة أخرى فى فارس الاساطير الذى تكلفه محبوبته بقتل الوحش فى مقابل حبها واحضار جزته اليها ·· لكننى هذه المرة فكرت فيه دون غضب بل بشعور أقرب الى الاعجاب ·· ان زوجتى لم تكن تعرف شيئا عن الادب مثلما كانت سيدة الاسطورة لا تعرف شيئا عن الوحش وعن الجزة ·· ولكن برغم هذا أو بسببه فان تسلطها قد راقنى · انه كان بمثابة تأكيد لما فى العمل الادبى الخلاق من اعجازووحى علوى .... وشعرت من فورى بقوة مفاجئة تخالطتها الثقة والامل والامتنان ، فادنيت وجهى من وجهها وقبلتها برقة وأنا اهمس قائلا :

ـ فى سبيل حبك سوف اصبح مؤلفا .. لا عن جدارة منى ، ولكن بسبب حبك ..

فلم تقل شيئا .. ونزلت من فراشها .. وتسللت أنا خارجا من غرفة النوم ..

بعد هذا استأنفت كتابتى بشجاعة مجددة ولم ألبث ان رأيت ان تقديراتى لم تكن خاطئة ، وانه حتى لو لم تكن هناك تلك العلاقة التى حاولت ان اتصورها بين الحب والعمل ، فان الفكرة التى استحوذت على وتسلطت على شعورى بالعجز والفشل ، ما كان يمكن ان أبددها الا بالكيفية التى أخترتها .

فى كل صباح كنت أشعر انى اشد قوة واوفر نضالا وانا اجابه اوراقى .. واخصب خلقا فيما بدا لى على الاقل ..

وهكذا فقد توافر لى بعد الحب أكبر واجل مطمح فى حياتى وهو الادب انه ايضا ابتسم لى وحالفنى .

فى كل صباح كنت اكتب من عشر صفحات الى اثنتى عشرة صفحة والقلم يفيض بسرعة واندفاع ولكن دون اضطراب ولا جموح .. أما باقى النهار فقد كنت أبقى مشدوها زائغا ، نصف حى ، يساورنى الاحساس بأنه خارج نطاق عملى لا يعنينى ولا يهمنى الان شىء فى الحياة ، حتى ولا حبى لزوجتى . ان كل ما كان يبقى بعد تلك الساعات الصباحية المضطرمة كان هو النفاية، هو الرماد المتخلف من شعلة مجيدة .. وحتى عندما كان يحين موعد انقاذ الشعلة الجديدة فى الصباح التالى، كنت أبقى فى جمود عجيب وعزلة عن الدنيا غريبة يملؤنى احساس غريب بالراحة ، غير مكترث بأى شىء لقد رأيت أننى اذا مضيت على هذه الوتيرة فأننى منجز

عملى عما قريب ، وربما أبكر مما كنت اقدر .. لقد شعرت انه لابد لى من بذل غاية الجهد بكل وسيلة ممكنة لجنى كل حبة من هذا الحصاد السخى غير المتوقع
ما كان لشىء غير هذا ان يعنينى ويهمنى فى وقتى الراهن ·· ولو قلت اننى كنت سعيدا لكان قولى فيه بخس للحقيقة وانتقاص منها ، ولكان فى نفسى الوقت أكثر كثيرا ··

لقد كنت ، لاول مرة فى حياتى ، خارج نطاق ذاتى ، اتقلب فى عالم مستقل مكتمل لحمته التناسق والانسجام وسداه الثقة واليقين .

وان هذه الحالة جعلتنى ادنى الى الانانية ·· وفى ظنى لو ان زوجتى مرضت فى تلك الفترة لما شعرت الا بقلق واحد هو احتمال صرفى عن عملى ·· وليس معنى هذا اننى لا احب زوجتى .. فانى كما اسلفت القول

احبها أكثر من أى شىء آخر ، ولكنها كانت بحكم واقعها منتمية الى دائرة منعزلة نائية عن المواطن العليا التى اتقلب فيها ، هى وسواها من كافة الاشياء التى لا وشيجة بينها وبين عملى ··

والحق اننى كنت مقتنعا لاول مرة فى حياتى باننى لم اجد فقط التنفس الذى كنت انشده وهو ما حاولته من قبل ألف مرة دون نجاح ، ولكن وجدت كذلك ان هذا التنفس كان يتخذ شكلا تاما وقواما سويا ..

وبعبارة أخرى كان يخامرنى احساس وثيق مؤسس ، فيما بدا لى على خبرتى كأديب بأننى كنت الان أؤلف رائعة من الروائع ·

١

الفصل السادس

كنت بعد العمل طيلة الصباح ، اقضى فترة العصر بالاسلوب المعتاد ، لا أحرص الا على تحاشى الانفعالات والصدمات والشواغل المفاجئة. .ورغم اننى كنت بعيدا كل البعد عن جوهر الأدب بمعناه العميق ، فأننى كنت فى أعماق نفسى مغتبطا بما كنت أكتبه فى الصباح وما أنوى كتابته فى غدى .. وكنت اذ حل موعد النوم ، اتمنى لزوجتى ليلة طيبة وأنا واقف فى الردهة الصغيرة بين بابى غرفتينا ، ثم اقصد الى فراشى راسا .. وكنت انام وانا اشعر بثقة لم أعرفها قط من قبل ، مدركا اننى احشد طاقات جديدة سوف استنفذها فى عملى فى اليوم التالى .. وكنت اذا استيقظت اشعر بالاستعداد وصدق الرغبة والتحفز وقوة العزم ، قد امتلا راسى بالافكار التى نبتت فيه أثناء النوم كما ينبت العشب فى المرج اثناء ليل مطير لماذا جلست الى المكتب ترددت مدى دقيقة لا أكثر ، فلا يلبث قلمى وهو يتحرك بارادة مستقلة أن يجرى فوق الصحائف من كلمة الى كلمة ، ومن سطر الى سطر ، وكأنه فما بين ذهنى وبين المداد المنبسط على الورق اتصال لا انقطاع فيه ولا تباين فى المعدن ..

كنت وكأن رأسى فى داخله شريط طويل لا ينتهى ، وبالكتابة كان كل ما يقتضينيالامر هو أن أجذب وابسط هذا الشريط ، ثم اسويه على الورق فى أشكال الخط الاسود الرشيق ٠٠ ولم يكن فى هذا الشريط عقد ولا ثغرات ٠٠ وكان يدون ويدورفى رأسى كلما بسطت لفافته ٠٠ وكنت أشعر انني كلما بسطته كلما كان به المزيد مما يمكن أن ينبسط ٠٠ وكما قلت من قبل ، كنت أكتب من عشر الى اثنتى عشرة صفحة ، مستحثا نفسى الى حد الاعياء البدنى ، مشفقا قبل كل شيء من أن هذا الفيض من النشاط قد يتناقص لسبب خفى أو ينضب معينه نهائيا واخيرا عندما لا اقوى على المزيد ، انهض عن مكتبى بقدمين متزايلتين واحساس بالدوار فى رأسى ، فأسير الى المرآة وانظر فيها الى نفسى٠٠وفيها كنت أرى لا صورة واحدة لنفسى بل صورتين ، وحتى ثلاثا ، تتداخل جميعا بعضها فى بعض ٠٠ فاذا غسلت وجهى بعناية واصلحت من شأنى لا البث ان أثوب الى نفسى ، وان بقيت كما قلت مشدوها زائغا بقية النهار ٠٠٠

وعندما كنت أجلس الى المائدة فيما بعد كنت آكل بشهية كبيرة آلية وانا أشعر كأننى لست كائنا من البشر قط ولكنى آلة خاوية تحتاج الى ملئها من جديد بالوقود بعد ساعات كثيرة من النشاط الحامى العنيف ٠٠

وكنت وانا آكل أضحك وامزح بل حتى أطلق النكات والتوريات ، وهو شيء جديد جدا بالنسبة لشخص هو عادة جاد ومحب للتفكير ٠٠ وكمايحدث لى دائما حين استسلم للحماسة فان هذا الافراط فى المرح لم يكن جميلا منى ولا لائقابى ، حتى كان أقرب الى قلة الاحتشام ٠٠ كنت شاعرا بهذا مدركا له ، ولكن فى حين كان ينبغى أن

أخجل من نفسى لاستسلامى لمثل هذا ، فاننى غدوت الان أقرب الى السرور من نفسى لانى أظهره وابديه .

وكنت أجلس الى المائدة مواجها لزوجتى ، آخذا فى الاكل .. لكننى فى الواقع لم أكن فى مكانى على الاطلاق .. ان أفضل ما فى شخصى قد بقى فى غرفة مكتبى مشرعا القلم .. ويمضى باقى النهار فى هذا الجو المرح ، مرح هو أقرب الى تخبط السكارى وافراطهم وصخبهم ..

ولو اننى كنت أقل حماسا وأقل ثملا بتوفيقى على هذا النحو ، فربما كنت أعرف فى غزارة انتاج تلك الايام وجود نفس ظاهرة المجاراة التى بدا لى احيانا انى اشتم وجودها فى مسلك زوجتى منى .. وبعبارة أخرى دون أن يتبادر الى الذهن أن القصة التى عكفت على تأليفها لم تكن هى الرائعة التى تصورتها ـ اذن فربما كان يستقر فى ذهنى أن هذا كله توفيق ويمن يجاوزان الحد بما لا يمكن أن يطابق الحقيقة .. ان الكمال ليس منشيمة البشر ، وكثرا مايتمثل فى الضلال أكثر منه فى الحق ، سواء استقر هذا الضلال فى العلاقات بيننا وبين غيرنا من الناس أو ساد علاقاتنا فيما بيننا وبين أنفسنا .. ذلك أنه لكى نتحاشى خشونة الحق ومنعرجاته الكريهة ، فان الاختلاق الذى يحقق غرضه دون ما عقبات ولا شكوك هو أكثر فعالية من أسلوب العمل السوى القويم الذى يلتزم الجوهر ويتحرى اللباب .. ربما كان يبغى كما قلت من قبل أن أكون متظننا مرتابا باستقامة أمورى وسيرها على هذا النحو الهين اللين ، بعد عشر سنوات أو أكثر من المحاولات غير المجدية .. لكن السعادة فضلا عما تخلق فينا من الانانية ، فانها كثيرا ما تجردنا من التفكير

وتجعل منا سطحيين كذلك ٠٠ لقد قلت لنفسى ان التقائى بزوجتى كان هو الشرارة التى أوقدت آخر الامر هذه الشعلة العظيمة المباركة ٠٠ وفيما وراء العلم بهذه الحقيقة ، فاننى لم أخط خطوة ولم اتجاوز النطاق ٠٠٠

لقد كنت مستغرقا كل الاستغراق فى عملى الى حد اننى لم أبد اهتماما كبيرا بحادث صغير ولكنه غريب حدث فى ذلك الحين ٠٠ فقد كانت بشرتى حساسة وكانت حلاقة الذقن دائما مشكلة صعبة بالنسبة لى ، لما يترتب عليها من التهابات جلدية ٠٠ ولهذا السبب فاننى لم استطع قط أن أحلق بنفسى وكنت استعين دائما بالحلاق ، وهو شىء ما زلت أفعله حتى الان ٠٠ وعند انتقالى الى الفيلا رتبت طبقا لما كنت اتبعه فى أى مكان آخر ان يجىء حلاق يحلق لى ذقنى صباح كل يوم ٠٠ وقد جاء الحلاق من القرية المجاورة ، حيث كان له دكان الحلاق الوحيد بها ، وهو دكان متواضع جدا ٠٠ واعتاد الحلاق أن يأتى راكبا دراجة ، وكان مجيئه دائما فى الساعة الثانية عشرة والنصف بالضبط بعد اغلاق دكانه قبل ذلك بنصف ساعة ٠٠ وكان وصوله اشارة لى بالكف عن العمل ، وكان اقترن أيضا بحلول أطيب أوقات نهارى ، وهى الفترة التى كنت فيها اطلق العنان لمرحى الطائش الذى سبق لى وصفه ، هذا المرح المتولد عن احساس باداء العمل واتقانه ٠٠٠

كان هذا الحلاق رجلا قصير القامة عريض المنكبين أصلع تماما ، تمتد صلعته من أمام الى خلف ، غليظ العنق ، ملىء الوجه ٠٠ وكان متين البنيان فى غير سمنة ٠٠ أما وجهه الذى اختلطت فيه السمرة بالصفرة حتى ليبدو وكأنه كان مريضا باليرقان منذ عهد قريب ـ فقد

كان أبرز ملامحه هو العينان الكبيرتان المستديرتان ذواتا البياض الواضح ، والنظرات الصافية التى تنم عن التساؤل والدهشة وربما السخرية ، التى كانت تطل منهما ·· وكان له أنف صغير وفم واسع ولكن رقيق الشفتين ، تكشف فيه ابتسامته النادرة عن صفين من الاسنان الكابية المكسورة ·· وكان بذقنه غمازة عريبة منفرة الشكل كأنه سرة ·· وكان لانطونيو ، وهذا اسمه ، صوت ناعم وهادىء بصورة غير عادية ·· وكان ليده ، كما استرعى نظرى منذ اليوم الاول ، خفة وبراعة مشهورتان ·· وكان فى نحو الاربعين من عمره ، وله زوجة وخمسة أطفال ···

بقى بعد هذا تفصيل واحد ، هو أن انطونيو لم يكن من اقليم توسكانى بل كان من قرية من جزيرة صقلية ·· ونتيجة لمغامرة غرامية تورط فيها اثناء خدمته العسكرية ، فقد استدرج الى الزواج والاستقرار فى هذه القرية ، حيث افتتح فيما بعد دكان الحلاقة ·· وكانت زوجته تعمل فى مزرعة ، ولكنها كانت تتركها أيام الاحادوتساعد زوجها فى الحلاقة للزبائن الكثيرين الذين كانوا يزدحمون فى دكانه فى اليوم السابق للعطلة ···

كان انطونيو شديد المواظبة ·· ففى كل يوم فى تمام الساعة الثانية عشرة والنصف كنت اسمع من نافذتى المفتوحة صوت الحصى فى الممشى وهو يطقطق تحت عجلات دراجته ·· فكانت هذه هى الاشارة لكى أكف عن العمل ·· ثم بعد فترة اسمعه وهو يطرق باب غرفة مكتبى فانهض عن المكتب وأنا أناديه فى بهجة وانتعاش أن يدخل ·· وعندئذ يفتح الباب ، ويدخل ، ويغلقه بعناية ، ثم يحيينى تحية الصباح مع انحناءة يسيرة ···

وكانت الخادمة تأتى معه حاملة ابريقا صغيرا به ماء ساخن تضعه فوق خوان صغير ذى عجلات يكون فوقه الصابون والفرشاة والامواس .. ولا يلبث انطونيو أن يدنى الخوان الصغير من المقعد ذى المسندين الذى أكون جلست فيه اثناء ذلك ، فيمضى فترة من الوقت فى تجليخ (الموسى وهو مول ظهره الى ناحيتى ·· وبعد أن يصب بعض الماء الساخن فى الاناء الصغير يبل الفرشاة ويجيلها دائريا فى وعاء الصابون فترة طويلة .. وأخيرا يتجه الى ناحيتى مشرعا الفرشاة ذات الرغاوى فى الهواء كأنها مشعل ·· وكانت عملية تغطية ذقنى بالصابون لا نهاية لها ، فانه لم يكن يكف عنها حتى يكتسى أسفل وجهى بطبقة عظيمة من الرغوة البيضاء ·· وعندئذ فقط يضع الفرشاة ويأخذ الموسى ···

لقد وصفت هذه الافعال العادية جدا بتفصيل دقيق لكى أعطى الاحساس ببطء ودقة حركاته وفى نفس الوقت لكى أقدم فكرة عن استعدادى عقليا لاحتمال ذلك البطء وتلك الدقة ، بل فى الواقع للاستمتاع بهما ·· اننى عادة لم أكن استطيب حلاقة الذقن ، وكانت سخافات بعض الحلاقين ومبالغاتهم تثيرنى ·· أما بين يدى انطونيو فكان الامر يختلف ···

كنت أشعر أن الوقت الوحيد الذى له قيمة عندى هو الوقت الذى أمضيه جالسا الى مكتبى ، قبل مجيئه .. وبعد ذلك ، سواء كان الوقت مخصصا للحلاقة أو للقراءة أو للحديث مع زوجتى ، فان الامر كان سيان عندى .. كان كله وقتا لا يهم حسابه ، طالما أنه لا يتعلق بعملى ..ولم تكن كيفية قضائى له شيئا ذا بال عندى .
وكان انطونيو صموتا ·· أما أنا ، من الناحية

الاخرى ، فلم أكن كذلك ·· ذلك لانني كنت أشعر ، بعد جهد وعناء عملى ، بحاجة غلابة الى شيء من التنفس سعادتى ·· وهكذا كنت أكلمه فى كل شيء يخطر ببالى ·· عن الحياة فى القرية ، وعن سكانها ، وعن المحصول ، وعن عائلته ، وعن أعيان القرية ، وما الى ذلك ·· ونقطة واحدة كانت تستهوينى أكثر من غيرها ، فيما اتذكر ، كانت هى وجوه الاختلاف بين مسقط راس الحلاق فى الجنوب وبين الموطن الجديد الذى اتخذه ·· ما من شيء كان يمكن ان يكون مختلفا عن اقليم توسكانيا وعن ابنائه أكثر من جزيرة صقلية ·· وفى الحق انى افلحت أكثر من مرة فى استخلاص ملاحظات غريبة منه عن توسكانيا وعن ابنائها ، وهى ملاحظات توسمت فيها رنة الاحتقار والاشمئزاز ·· ولكن الغالب هو ان أنطونيو كان يجيب برصانة بالغة وانه كان يتحرى الدقه التامه فيما كان يبدو لى ·· وكان له اسلوبه المصقول ، المتحرز ، الجامع ، وربما الساخن ، ولكنها سخرية يسيرة لا تكاد تبدو ظاهرة ·· واحيانا اذا كنت أضج بالضحك لنكته الديتها ، أو اذا كنت احتدم فى الكلام ، كان يكف عن تغطية وجهى برغوة الصابون أو الحلاقه لى ، رافعا فرشاته او موساه فى الهواء ، وظل ينتظر صابرا حتى أعود الى الصمت أو الهدوء من جديد ...
من جديد ···

الفصل السابع

في أحاديثى مع انطونيو ، لم يكن فى ذهنى هدف معين محدد ، كما اظن انى أوضحت هذا من قبل ‥ ولكنى بعد فترة من الوقت أدركت انه برغم كافة الاحاديث الخاصة التى عرضتها عليه ، فاننى لم انغلغل قط الى مركز عقله ولا استطعت أن أسبر اهتماماته الاساسية ‥ ورغم أنه كان فقيرا وذا عائلة كبيرة ، فانه بدا ولا اهتمام له بالمال ‥ كان يتكلم عن عائلته بلون من الحيدة وبدون محبة أو صرامة او اى شعور معين اخر ، كما يتكلم الانسان عن شيء لا مفر منه وهو عنده أمر طبيعى تماما ‥ وفى مجال السياسة لاحظت انه لا اهتمام له بها على الاطلاق ‥ وفيما يختص بمهنته ، فبرغم معرفته التامة بها ومحبته لعمله ، فانها لم تكن تعنى فى نظره شيئا اكثر من انها مجرد وسيلة لكسب العيش ‥ وفى النهاية قلت لنفسى أن هناك شيئا خفيا فى أمره ، ولكن حاله فى هذا هو حال كثيرين من أبناء الطبقة العاملة ، الذين يحلو للناس الاقتدار على ان يعزوا اليهم اهتمامات تطابق أوضاعهم ، ثم يجدون انهم مشغولون بنفس الشواغل التى تهم كل انسان ‥

وعندما يكون انطونيو عندى للحلاقة كانت زوجتى عادة تأتى الى الغرفة وتجلس فى الشمس فى النافذة المفتوحة ومعها أدوات المانيكير أو كتاب .. ان هـذه الزيارة الصباحية لزوجتى مع وجود انطونيو لحلاقة ذقنى ، كانت تهيىء لى سرورا عظيما وان كنت لا أدرى له سببا ٠٠ وربما كان ذلك لانها ، مثل انطونيو ، كانت مرآة أنظر فيها الى انعكاس سعادتى الخاصة ٠٠ انهـا بمجيئها ، مثل انطونيو ، وان كان الامر مختلفـا ، وجلوسها فى الغرفة التى كنت أعمل فيها منذ فترة قصيرة ، كانت تساعد على اعادتى الى جو الحياة اليومية ، واعنى به ذلك الجو الهادىء السمح الرتيب الذى يسمح لى بأن أمضى فى عملى مطمئنا آمنا ٠٠ وكنت بين آونة واخرى اقطع حبل ثرثرتى مع الحلاق واسألها كيف حالها أو أى كتاب تقرأه أو ماذا تفعله ٠٠ فكانت تجيب بهدوء ورصانة ودون أن ترفع عينيها ٠ أو تقطع قراءتها أو تمسك عن تقليم أظافرها ٠٠ وكانت الشمس تسطع على شعرها المرسل فى موجتين طويلتين على جانبى وجهها ٠٠ ومن خلف رأسها المطرق كنت أرى من خلال النافذة المفتوحة أشجار الحديقة وهى لا تقل وهجا ، والسماء الزرقاء ٠٠٠

ان أشعة الشمس هذه كانت ترسل انعكاسات مصفرة على قطع الاثاث ، وتنبعث أشعة تخطف الابصار من موسى انطونيو ، وتنتشر سخية من حافة النافذة الى أبعد أركان الغرفة ، فتسبغ مسحة من الرواء والحياة على الالوان الباهتة ، والاسطح التربة للمناضد والمقـاعد العتيقة ولاغطيتها الحائلة الشاحبة ٠٠٠

كنت سعيدا بهذا كل سعادة ، حتى قلت فـى

سري ، « اننى ماحييت سوف أتذكر هذا المشهد·· آنا مضطجع فى المقعد ذى المسندين ، وانطونيو يحلق لى ذقنى ·· والنافذة مفتوحة والغرفة مليئة بالاشعة وزوجتى جالسة هناك فى الشمس » ··

وذات يوم دخلت زوجتى الغرفة مرتدية ثوبا منزليا وقالت لانطونيو انها تريد ان يصفف شعرها ·· واضافت ان كل ما تحتاج اليه هو لمسة من مكواة الشعر بعد أن تولت غسله بنفسها صباح اليوم ··

وقد سألت انطونيو ان كان يعرف تمويج الشعر ، وعندما رد بالايجاب ، طلبت منه أن يذهب الى غرفتها بعد أن يفرغ من عندى ·

ولما خرجت زوجتى سألت انطونيو ان كان قد سبق له العمل حلاقا للسيدات ، فرد فى شيء من التباهى بأن كل بنات الناحية يذهبن اليه لتصفيف شعرهن ·· فأدهشنى كلامه ، ولكنه أكد لى أنه حتى البنات القرويات يرغبن ايامنا هذه فى تمويج شعرهن ·· واختتم انطونيو كلماته بهذه العبارة باسما : « انهن يحرصن على هذا أكثر من سيدات البلدة ·· وهن لا يقنعن أبدا بما افعله لهن ·· احيانا تكون لهن تصرفات تدفع الى الجنون .

واستمر انطونيو يحلق لى بنفس أسلوبه المعتاد فى بطئه ودقته ، وبعد أن رتب جميع الامواس تركنى وذهب الى غرفة زوجتى ··

وجلست بعد ذهاب انطونيو فى الشمس فى المقعد الذى كانت زوجتى تجلس فيه عادة ، وبيدى كتاب · وأذكر انه كان ديوان الشاعر تاسو الذى كنت أخذت أعيد قراءته فى ذلك الحين ·· وكنت أشعر وقتذاك بصفاء ذهنى واشراق نفسى ، وكان لقصائده البديعة الرشيقة

التى كانت تضاهى جمال هذا اليوم الوضىء الرقراق ، من الاثر فى نفسى ما جعلنى أنسى اننى انتظر زوجتى ٠٠

وبين فينة واخرل كنت أرفع عينى الى النافذة مرددا ابياتا من القصيدة فى ذهنى ، وكنت كلما فعلت ذلك أزيد احساسا بسعادتى ، كانسان يتقلب فى فراش دافىء وثير ، فيشعر كلما تقلب بالدفء والوثارة ٠

واستغرقت عملية انطونيو مع زوجتى نحو ثلاثة ارباع الساعة .. وفى النهاية سمعته يخرج الى المشى ويحيى الخادمة منصرفا بصوت هادىء ، ثم سمعت طقطقة الحصى تحت دراجته وهو يبتعد ٠٠ وبعد دقائق أخرى دخلت زوجتى الغرفة

أغلقت كتابى ونهضت لكى أنظر اليها ٠٠ ان انطونيو قد حل المشكلة بان غطى كل راسها بلفائف الشعر ، وأحال الشعر الناعم المرسل الى شبه عارية من القرن الثامن عشر ٠٠ ان هاته اللفائف المكومة بعضها فوق بعض والمصطفة حول وجهها الطويل النحيل قد أسبغت عليها ، لدى النظرة الاولى ، مظهرا غريبا وكأنها امرأة ريفية متأنقة الثياب ٠٠ ثم ان هذه الصورة الريفية قد ضاعف من بهائها أعواد من الازهار النضرة ، وأذكر انها كانت من الجرانيوم القانى ، رشقت فوق صدغها الايسر ٠

لم اتمالك أن هتفت وقد استخفنى الابتهاج :

ـ رائع : ان انطونيو ساحر بالتأكيد ! ٠٠ على ماريو واتيليو أشهر حلاقى روما أن يذهبا ويدفنا رأسيهما ! ٠٠ انهما لا يستأهلان حتى أن يربطا حذاء ! ٠٠ أنت تشبهين احدى بنات الفلاحين اللاتى ترينهن فى نواحينا عندما يذهبن الى السوق يوم الاحد ٠ ثم ان هذه الازهار

رائعة ! ‥ دعينا ننظر اليك !

قلت هذا وانا أحاول أن أديرها امامى ببطء لكى أزيد اعجابا بمنجزات الحلاق . .

ولكن شد ما كانت دهشتى أن رأيت وجه زوجتى متجهما متعكر المزاج بما لم أستطع أن أعلله ‥ كانت شفتها السفلى ترتعش وكانت هذه دائما علامة غضب عندها ‥ ولم تلبث إن دفعتنى عنها بحركة فيها اشمئزاز عظيم ، قائلة :

ـ ارجوك لا تمزح ! ‥ انا لست فى حال تسمح بأى مزاح ! .

لم افهم . واستطردت اقول :

ـ هيا ‥ لا داعى للخجل . أؤكد لك أن انطونيو فعل شيئا ممتازا ‥ أنت تبدين فى صورة رائعة ‥ لا تقلقى ، فسوف تظهرين رائعة فى السوق يوم الاحد القادم ‥ واذا ذهبت للرقص ، فمؤكد انك سوف تتلقين طلبات كثيرة للزواج ! ‥

وكما يستطيع القارىء أن يتصور ، فاننى قدرت أن تعكر مزاجها راجع الى ما فعله انطونيو ‥ كنت أعرفها ذات صلافة شديدة ، ولم تكن هذه اول مرة يثير حلاق غير مقتدر غضبها . . بيد انها لم تلبث أن دفعتنى عنها مرة ثانية ، مقترنة هذه المرةبنظرة استياء ، وكررت قولها :

ـ قلت لك الان لا تمزح ! .

وفجأة سطع فى ذهنى أن سخطها ناجم عن شىء آخر غير تصفيف الشعر ، فسألتها :

ـ لكن لماذا ؟ . . ماذا جرى ؟

فيممت شطر النافذة وجعلت تنظر فيها وقد وضعت

يديها على حافتها ··
وفجاة استدارت قائلة :
حلاقك ! ·· اننى لا أريد انطوني هذا أن يأتى الى هنا
ـ لكن ما هى الحكاية اذن ؟
ــ ان ما جرى هوانه لابد لك غدا من أن تتكرم وتغيرا مرة ثانية ! ·
تملكتنى الدهشة .. وقلت لها :
ـ لكن لماذا ؟ ·· انه ليس حلاقا من البلدة ، أنا أعرف هذا بالطبع .. لكنه يجيد الحلاقة لى .. اما أنت فلا حاجة بك الى استخدامه مرة ثانية ·
··فانفجر غضبها قائلة :
ـ آه يا سيلفيو ! ·· لماذا لا تفهمنى ؟ ·· المسألة ليست مهارته فى عمله ·· ما أهمية هذا ؟
ـ انه كان قليل الاحترام معى ·· وأنا لا أريد أن أراه مرة ثانية ·· ولا مرة ! ·
··ـ كان قليل الاحترام لك ؟ ·· ماذا تقصدين ؟
ولابد أنه كان فى تعبير وجهى ونبرات صوتى شىء من الاستخفاف الذى كان يعترينى صباح كل يوم فى هذه الفترة ، فانها أردفت تقول بلهجة الاحتقار :
ــ لكن ماذا يهمك اذا كان انطونيو قليل الاحترام معى ؟ « بالطبع هذا لا يعنيك فى شىء ! ..
خشيت أن أكون أسأت اليها ·· فاقتربت منها وقلت لها بلهجة الجد :
ـ سامحينى ·· ربما لم افهم كما يجب ·· لكن أرجوك بالله أن تخبرينى بأى طريقة كان ينقصه الاحترام لك ·
فهتفت تقول فى حنق مفاجىء كان موجها الى مرة

أخرى وقد ارتعشت فتحتا أنفها وشفت نظراتها عن الصلابة :

ـ قلت لك أنه كان قليل الاحترام .. وهذا يكفى جدا .. هو رجل فظيع ! . أطرده من هنا ! .. جىء بشخص آخر ! . لا أريد أن أراه هنا مرة ثانية ! ..

فقلت لها :

ـ أنا لا أفهم .. هو رجل معروف عادة بشدة الاحترام .وبالجد فى الحقيقة .. رب أسرة .

فرددت عبارتى قائلة وهى تهز كتفيها سخرية :

ـ نعم .. رب أسرة ! ..

ـ لكن هل تخبريننى الان بالله ماذا فعل نحوك ؟

وجعلنا نتجادل على هذه الصورة فترة ، أنا مصر على أن أعرف كيف أبدى انطونيو قلة احترام نحوها ، وهى ترفض أن تقدم أى تفسير ، مكتفية فقط بتكرار اتهامها . وفى النهاية ، وبعد كثير من الجدال الصاخب ، أعتقد اننى فهمت ما حدث ..

كان لزاما على انطونيو ، لكى يصفف شعرها ، أن يقف قريبا جدا من المقعد ذى المسندين الذى جلست فيه .. وقد بدا لها أنه حاول أكثر من مرة أن يحتك بكتفها وذراعها .. قلت (بدا) لهـا ذلك انهـا هى نفسها قررت ان الحلاق استمر فى عمله رابط الجأش ملتزما طيلة الوقت الصمت والاحترام .. ولكن هذا الاحتكاك كما أقسمت ليدا ، لم يكن مصادفة .. لقد لاحظت انه كان عن عمد وكان وراءه قصد .. كانت واثقة ان انطونيو قصد بهذا الاحتكاك أن يوجد علاقة معها ، وأن يعرض عليها عرضا غير محتشم .

قلت فى النهاية وأنا فى دهشة :

ـ لكن هل أنت متأكدة كل التأكد ؟

ـ وكيف لا أكون متأكدة ؟ ٠٠ أواه ياسيلفيو ، كيف يمكن أن تشك فيما أقول ؟

ـ لكن ربما كان الامر مجرد انطباع عندك ٠٠

ـ انطباع ؟ ٠٠ كلامفارغ ! ٠٠ وفضلا عن ذلك ، يكفى أن ينظر الانسان اليه ٠٠ هو كريه منفر ، ذلك الرجل ! ٠٠ أصلع تماما ٠٠ وله ذلك العنق وتلك العينان اللتان تنظران اليك من تحت أجفانه ولا تتجه مباشرة الى واجهك .. ان صلعة هذا الرجل فظيعة .. ألا ترى ما أعنى ؟ ٠٠ هل أنت أعمى ؟

ـ ربما كان الامر مصادفة ٠٠ ان عمل الحلاق يضطره الى الاقتراب جدا من الزبون ٠

ـ لا ٠٠ لم تكنمصادفة ٠٠ (مرة واحدة) ربما تكون مصادفة ٠٠ ولكن مرات كثيرة ، بل كل المرات ! ٠٠ لا ٠٠ لم تكن مصادفة ! ٠٠

فقلت ولا أستطيع أن أنكر أننى شعرت بشىء من التفكه وأنا أتولى هذا التحقيق :

ـ لننظر فى الامر ٠٠ اجلسى أنت فى هذا المقعد ٠٠ سأكون أنا أنطونيو ٠٠ والان لننظر ما يكون ٠٠

كانت تغلى ضجرا وغضبا ، بيد أنها أطاعت ، وان كان بتأفف ، وجلست فى المقعد ٠٠ فتناولت قلما متظاهرا بأنه مكواة الشعر ، وانحنيت نحوها كأننى أعقص شعرها ٠٠ والواقع أننى فى هذا الوضع ، كما تصورت ، كان الجزء الاسفل من معدتى فى مستوى ذراعها وكتفها ، ولم أستطع الا أن أحتك بها ٠

قلت لها :

ـ أنظرى ٠٠ المسألة بالضبط كما تصورت ٠٠ لم يكن بامكانه الا أن يلمسك ٠٠ واذا كان لابد من شىء اذن ،

فكان عليك أنت أن تبعدى نفسك قليلا الى الناحية الاخرى ··
ـ هذا نفس ما فعلته ·· ولكنه عندئذ انتقل الى الناحية الاخرى ··
ـ ربما اضطر الى أن يفعل هذا لكى يصفف شعرك فى هذه الناحية ··
ـ لكن ياسيلفيو ·· هل يمكن أن تكون أعمى الى هذا الحد ، وغبيا الى هذا الحد ؟ ·· يكاد يظن الانسان أنك تفعل هذا عن عمد ! ·· أقول لك ان ذلك الاحتكاك كان عن قصد ! ··
تبادر سؤال الى شفتى ، ولكننى ترددت فى توجيهه ·· وفى النهاية قلت :
ـ هناك احتكاك واحتكاك ·· هل بدا لك أنه وهو يلمسك كان ··· كيف أقول ؟ ··· منفعلا ؟
كانت جالسة منكمشة على نفسها فى المقعد ، واصبعها بين أسنانها ، وعلائم الحيرة الغريبة تبدو على وجهها الذى ما زال ينم عن الغضب ·· وما لبثت أن اجابت قائلة وهى تهز كتفيها :
ـ بالتأكيد ··
خشيت أننى لم أفهم كما يجب ، أو لعلى لم أوضح قصدى ، فقلت بالحاح :
ـ هل كان واضحا أنه منفعل ؟
ـ حسنا ·· نعم ··
لقد أدركت الان أننى ربما كنت أكثر دهشة لمسلك زوجتى من دهشتى لمسلك انطونيو .. انها لم تكن فتاة، ولكن امرأة ذات تجربة كبيرة ·· وفضلا عن ذلك فاننى لم أكن جاهلا انها كانت فيما يتصل بالاشياء التى من هذا القبيل تنحو نحو السخرية المرحة ·· كل ما عرفته عنها

كان يجعلنى أظن انها ما كانت لتقيم ضجة بسبب هذا الحادث ·· او على الاكثر ، كانت تحكيه لى فى حيدة وسخرية ·· وبدلا من ذلك ، كان كل هذا الغضب ، وهذه الكراهية ! ··

قلت لها متحيرا :

ـ لكن أنظرى ·· كل هذا ما زال لا يعنى شيئا ·· أى انسان عرضة للانفعال بشىء معين دون أن تكون له ارادة فى ذلك ، بل لا ارادة قطعا . .

فلم تقل شيئا ·· وبدا أنها تفكر تفكيرا عميقا وهى تعض على طرف أصبعها وتنظر فى اتجاه النافذة ·· فحسبت انها انحازت الى الهدوء ، واستطردت أقول وما زالت لهجة المزاح غالبة فى حديثى :

ـ حتى القديسين لهم ما يغريهم ، فما بالك بالحلاقين ؟ ·· مسكين انطونيو ! ·· انه على غير انتظار اكتشف رغم ارادته أنك امرأة جميلة جدا ومحط النظر ·· ولكونه كان بقربك ، فانه لم يستطع أن يتحكم فى نفسه ·· انه فعل هذا على غير ارادة منه وعلى كره منك أيضا ·· وهذا كل ما فى الامر ··

لم تخرج من صمتها ·· فاختتمت كلامى بلهجة المرح قائلا :

ـ بعد كل هذا ، أظن أنه يجب عليك أن تقللى من قيمة هذه الحادثة ·· انها لم تكن قلة احترام ، بقدر ما كانت نوعا من التقدير ·· تقدير فيه فظاظة وسذاجة ريفية ولا شك · ولكن الاساليب تختلف ، كما تعلمين ! ··

والحق أن استسلامى للمرح المألوف الذى كان يلم بى بعد انتهائى من العمل جاوز حده ، وجعلنى ابدو كمايرى القارىء ، بهذه الصورة المؤسفة من التظرف والاستخفاف ·· وعندما تيقنت من هذا تحاملت على

نفسى للعودة الى الجد فأضفت قايلا على عجل .

ـ سامحينى ·· أنا أعلم أننى كنت بذيئا ، لكن اقول لك الحقيقة اننى لا اسيغ أن آخذ هذه المسألة مأخذ الجد والخطورة ·· ويزيد من هذا تأكدى من أن انطونيو برىء ··

وأخيرا تكلمت ·· فقالت :

ـ ليس فى أى شىء من هذا ما يعنينى ·· ان ما أريد أن أعرفه هو ما اذاكنت على استعدادلطردهمن هنا ·· هذا كل ما هناك ··

لقد ذوهت من قبل أن السعادة تجعلنا أنانيين ·· وفى هذه المناسبة بالذات لعل أنانيتى بلغت ذروتها ·· ذلك لاننى كنت أعلم انه لا يوجد حلاق آخر فى القرية ·· وكنت أعلم الى ذلك أنه يستحيل ايجاد حلاق آخر فى البلدة يقبل ان يسافر عدة أميال كل يوم لكى يأتى ويحلق ذقنى ·· ومعنى هذا أن أتخلى نهائيا عن فكرة وجود حلاق وأحلق ذقنى بيدى ·· لكن لما كنت فعلا لا أعرف أن أحلق لنفسى ، ان هذا سوف يؤدى الى حدوث التهابات جلدية ، وخدوش ، وجروح ، وكل أنواع المضـايقات الاخرى ·· وبدلا من هذا فاننى كنت أريد أن يجرى كل شىء كما هو الان بلا تغيير ولا انقطاع طالما اننى أعمل ·· لم أكن أريد أن يحدث شىء يقلب الهدوء العميق الذى كنت أعده ، صوابا أو خطأ ، لا غنى عنه اطلاقا اذا أريد لعملى أن يستمر ··

هكذا الزمت نفسى فجأة بالجد الكبير ، وقلت :

ـ لكنك ياعزيزتى لم تنجحى فى اقناعى أن انطونيو قصر حقا فى ابداء الاحترام لك ـ أقصد عن عمد ·· لماذا أطرده ؟ ·· لاى سبب ؟ ·· ما هو التبرير الذى يمكن أن أقدمه ؟ ··

ـ أى تبرير ·· قل له اننا مسافرون ··
ـ هذا غير صحيح ·· وسوف يكتشف الحقيقة فى الحال ··
ـ وما يهمنى فى هذا ، حيث اننى لا أراه مرة ثانية ؟
ـ لكن لا يمكن ··
فهتفت مهتاجة :
ـ ألا تفعل هذا ارضاء لى ؟
ـ لكن ياعزيزتى، فكرى لحظة ·· ما الذى يدفعنى الى التبرع باهانة رجل مسكين هو ···
ـ رجل مسكين فعلا ·· انه شخص فظيع ، شنيع ، كريه ! ··
ـ وفضلا عن ذلك فماذا أفعل فى مسألة الحلاقة ؟ ·· أنت تعرفين تماما أنه لا يوجد حلاقون على مدى خمسة عشر ميلا من هذا البيت ··
ـ احلق لنفسك اذن ·
ـ لكننى لا أعرف أن أحلق بيدى ·
ـ أى نوع من الرجال أنت ، اذا كنت لا تعرف حتى كيف تحلق لنفسك ؟
ـ لا ·· لا يمكننى أن أحلق لنفسى ·· اذن ما العمل ؟
ـ طول ذقنك اذن ··
ـ يالطيف ! ·· لو فعلت هذا لما أغمضت عينى ولا نمت لحظة واحدة ! ··
فأخلدت الى الصمت فترة ، ثم هتفت بصوت يشف عن اليأس :
ـ اذن فأنت ترفض أن تفعل ما أطلب منك ؟ ·· ترفض هذا ! ··
ـ لكن ياليدا ··

ـ نعم ! ٠٠ أنت ترفض هذا ! ٠ وتريد أن تضطرنى الى رؤية هذا الرجل الفظيع المقرف مرة ثانية ! ٠٠ تريد أن تضطرنى الى مخالطته ! ٠٠

ـ لكننى لا اريد ان الزمك بأن تفعلى اى شىء . . لا حاجة بك الى اظهار نفسك ٠ يمكنك ان تلزمى غرفتك الخاصة ٠٠

اذن تريد ان تضطرنى للاختباء فى بيتى ، لانك لا تريد ان تفعل هذا مرضاة لى ! ٠٠

ـ لكن ياليدا ٠

ـ ابعد عنى ! ٠

كنت قد اقتربت منها وحاولت أن امسك بيدها فرددت كلماتها قائلة :

ـ ابعد عنى ! ٠٠ اريد ان تطرده من هنا ٠٠ هل تفهم ؟

قررت أخيرا أنه لابد من اتخاذ موقف حازم ، فقلت لها :

ـ اسمعى ياليدا ٠ ارجوك الا نستمر هكذا ٠٠ هذه نزوة صغيرة وانا لا أنوى ان اخضع للنزوات ٠ الان سأحاول ان أعرف اذا كان ماتقولينه صحيح . لكن فقط عندما يمكن اثبات حقيقة اتهامكلهذا الرجلفاننى سوف اطرده ٠٠ وبغير هذا لا ٠٠

فجعلت تنظر الى حيذا ثم لم تلبث ان نهضت وغادرت الغرفة دون كلمة واحدة ٠

ولما اصبحت وحدى أمضيت فترة وأنا أفكر فى الحادث ٠٠ كنت مقتنعا باخلاص ان حقيقة الامر هى كما قلت ٠ لاشك ان انطونيو قد انفعل نتيجـة احتكاكا بذراعيها ولم يقو على كبح انفعاله ٠٠ لكننى كنت واثقا

انه لم يفعل شيئا لتسهيل او تكرار مثل هذا الاحتكاك الذى لا يمكن على اى حال اجتنابه فى مثل موقفه. انما هو ملوم فقط لتقصيره فى تحاشى هذا العارض الاضطرارى ·· ان هذا لا يزال هو اعتقادى حتى الان ، ذلك لاننى اعتبر ان بعض دواعى الاغراء المعينة تزيد حدتها لعدم كبحها ··

ان هذه الاعتبارات التى انتهيت اليها فى انفرادى وبيقين خالص ، قد بددت كل ما كان لدى من وخز الضمير ·· وكنت أعرف اننى أساسا قد تصرفت بدافع من الانانية ·· بيد ان هذه الانانية لم تكن مناقضة لما اعتبرته عدلا صرفا اننى كنت مقتنعا ببراءة انطونيو ، واذن فانى لم أشعر بأى تردد حين وضعت راحتى الذاتية قبل ما كنت اعده مجرد نزوة من جانب زوجتى ·

وبعد بضع دقائق لحقت بليدا على المائدة ·· كانت تبدو هادئة تمام الهدوء ، بل انها كانت هى الصفاء بعينه ·· وعندما خرجت الخادمة من الغرفة بالاطباق قالت لى :

ـ حسنا ·· يمكنك الاستمرار فى استخدام انطونيو ، لكن لابد ان ترتب الامور بحيث لا أراه ·· اننى حتى لو صادفته فى السلم فلن أكون مسئولة عما يحدث منى ·· لقد اعذر من أنذر ! ·

تملكنى الارتباك حقا ، حتى تظاهرت باننى لم اسمع ·· فاضافت تقول :

ـ قد لا تزيد المسألة عن مجرد نزوة ·· ولكن نزواتى كان يجب ان تكون أهم عندك من راحتك الشخصية ·· الا تظن هذا ؟

كان هذا الكلام على النقيض تماما مما انتهيت اليه

شخصيا ·· وقبل ان اتكلم دخلت الخادمة من جديد وتوقف الحديث ·

وفى اثناء نزهتنا فيما بعد ، حاولت استئناف الكلام فى الموضوع ·· فقد شعرت بوخز الضمير من جديد وكنت أريد منها ان تقنع بالاسباب التى استندت اليها · ولكن كان من دواعى دهشتى انها هذه المرة قالت لى برقة :

ـ لا تدعنا نتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى ياسيلفيو اذا لم تمانع ·· فى الصباح كان الموضوع يبدو كبيرا فى نظرى ، ولا ادرى انا نفسى السبب .. اما الان بعد ان فكرت فيه جيدا فقد رأيت اننى كنت أبالغ ·· بامكانى ان اطمئنك الان انه ماعاد يهمنى فى كثير ولا قليل ··

بدت لى صادقة مخلصة بل اقرب الى الاسف لما كان من غضبتها فى الصباح فقلت لها بالحاح :

ـ هل انت متأكدة تماما ؟

فقالت بحرارة :

ـ نعم ·· واقسم لك ·· وما الذى يدعونى الى ان اكذب عليك ؟

اخلدت الى الصمت ·· ومضينا فى سيرنا وقد تطرق بنا الحديث الى شئوون أخرى .. وهكذا كنت مقتنعا بأن زوجتى قد طردت هذا الموضوع من ذهنها حقا ..

الفصل الثامن

لا استطيع اليوم ، وانا اسرد واقعة انطونيو ، الا أن اصورها فى بعدها النسبى من سياق الاحداث التى وقعت قبلها وبعدها ‥ وفى تصورى ان هذا الاسلوب نفسه هو ما يحدث فى كتابة الانسان للتاريخ ‥ ولكن ، كما ان الاحداث الكبرى فى عالم الواقع ، تمر وهى لا تكاد تنال كل الاهتمام من المعاصرين لها ، مثلما حدث بالنسبة (للثورة الفرنسية) حينما ادرك قلة قليلة من المشاهدين والممثلين على مسرحها انها هى (الثورة الفرنسية) بمدلولها بعد ذلك فكذلك كانت واقعة انطونيو وقتها بالنسبة الى لم تترك انطباعا بارزا فى خيالى ، ولا طرقت ذهنى بقوة ..

والواقع اننى لم أكن على استعداد لكى اسبغ اهمية ما على حادث من هذا النوع ، فان علاقاتى بزوجتى كانت حتى الان موسومة بطابع المعقولية والسعادة ، ولا يتصور الانسان أن يجد بابا خفيا كالذى كان يمد للغدر والاقتناص فى العصور الوسطى ، فى قاعة عصرية باهرة الضياء ‥ ولا مفر لى أن اتمسك بخاصية البراءة وعدم التحامل هذه من خصائص الخلفية التى استحوذت على

عقلى وقتها ، لان فيها تبرير ما كان من تصرفاتى الانانية ازاءها وتفسير مسلكى السطحى ·· ومهما يكن من أمر هذه الذرائع جميعا ، فاننى لم أكن راغبا ولا مستطيعا فى هذه المناسبة أن افكر تفكيرا ينذر بالسوء والشر ، الى درجة انه عندما طرق انطونيو باب غرفة مكتبى فى الساعة المعتادة فاننى لم استشعر شيئا من الاستياء او الاهتياج .... وبموازين الحيدة الموضوعية العقليـــة التى الفيتنى أزن بها الواقعة حينذاك ، فقد لذ لى أن ادرس هذا الرجل فى الضوء الجديد الذى سلطته عليه اتهامات زوجتى له ··

وأول الامر رحت أدرس مسلكه عن كثب وارقب اطواره بامعان بينما كان يحلق ذقنى وبينما كنت أدير دفة الحديث معه كالعادة ولم يكن مثل هذا الحديث يشق على ··

رأيته منهمكا كل الانهماك فى عمله كعادته دائما ، مؤديا له بكل يسر وبراعة ·· قلت لنفسى وقد آنست منه ذلك انه اذا صحت اتهامات زوجتى له فمعنى ذلك انه رجل بارع بصورة خارقة فى الخداع والمداجاة لفرط ما توسمت من علائم الاستغراق الشديد والانهماك البالغ والهدوء التام فى وجهه الكبير الملىء ، بسمرته الساجية وبشرته الداكنة ·

ان كلمات زوجتى مازالت تتردد فى أذنى حيـن قالت : « هو رجل شنيع ، فظيع ، كريه » ·· ولكننى بعد ان تفحصته بادق عناية لم يكن بد ان استخلص انه ليس فى أطواره شىء من الشناعة ، والفظاعة وموجبات الكراهية .. بل ان كل مظهره على شيء،فانما كان يدل على طـابع الابوة ، أو مظهر الرجـل الذى اعتـاد ان

ينصرف الى رعاية اطفاله الخمسة .. بعبارة أخرى مظهر القدرة البدنية الصرفة الملازمة لصاحبها كطبيعة فيه دون ان يلقى أى بال .

وخاطر آخر طاف بذهنى وانا انظر اليه .. ورغم اننى ادركت بصورة مبهمة انه خاطر طائش ، فاننى تعلقت به كقرينة لا داحض لها .. ان رجلا قبيحا مثل هذا ــ اللهم الا اذا كان مختل العقل ، وهو ما لم يكنه انطونيو قطعا لا يمكن ان يساوره ادنى رجاء فى اى نجاح لدى النساء ، وهو أقل من هذا حظا لدى امرأة مثل زوجتى الوافرة الجمال ، التى هى من طبقة مختلفة كل الاختلاف عن طبقته ..

والواقع ان نظراتى سجلت فى شعور لايخلو من الارتياح انه ملىء الوجه بصورة اقرب الى السمنة المنفرة التى لا تنم عن الصحة الحقيقية مع انتفاخ غير طبيعى فيما بين الفك والعنق ، وهو ما يذكر الانسان بالانتفاخ المماثل الذى يشاهد فى بعض الافاعى الاستوائية المعينة فى لحظات الغضب .. وكان الى ذلك كبير الاذنين ، أصلع الرأس ، تخالط صلعته بقع داكنة من تأثير شمس الصيف . .

ثم ان انطونيو كان مخلوقا كثيف الشعر بصورة كبيرة . . فقد كانت خصلات من الشعر تنبت فى أذنيه وفى خيشوميه وحول عظام صدغيه ..

وبعد ان تفحصت هذا القبح فترة طويلة بدقة وسكون اخترت لحظة استدار فيها انطونيو لمسح الموسى فى قطعة من الورق ، فقلت اخاطبه بصوت عادى :

ــ اننى فكرت كثيرا يا انطونيو وتساءلت هل يمكن

لرجل مثلك هو متزوج وله خمسة اطفال ان يجد وقتا وفرصة للجرى وراء النساء !!

فأجاب بغير ابتسام وهو يعود الى بموسى الحلاقة:

ـ اذا تعلقت المسألة بهذا الموضوع بالذات ياسنيور بالديتشى ، فانه يمكن دائما ايجاد الوقت لأجله .

واعترف اننى كنت أتوقع ردا مختلفا عن هذا حتى اننى دهشت اشد وقلت أعارضه :

ـ لكن اليست زوجتك غيورة ؟!

ـ كل الزوجات غيورات ..

ـ اذن فانت غير وفى لها ؟ ..

فرفع الموسى ونظر الى مواجهة قائلا :

ـ معذرة ياسنيور بالدينشى .. لكن هذه مسألة خاصة تعنينى وحدى .

شعرت بوجهى يحمر ، اننى وجهت اليه هذا السؤال الطائش لانى ظننت غباء منى وقصور تقدير ان من حقى ان افعل هذا ، كحق سيد لمسود ومتبوع لتابع ..

بيد انه وضعنى فى مكانى كند لند ، وهذا ما لم أكن اتوقعه ..

ولقد شعرت باستياء ، وكنت على وشك أن ارد عليه قائلا : ان المسألة لا تعنيك انت وحدك بل تعنينى انا ايضا ، بعد أن بلغت بك الوقاحة حدها لمضايقة زوجتى » .. لكننى تمالكت وكبحت هذا الدافع ، وقلت بشىء اقرب الى الارتباك :

ـ لا يجب أن تستاء يا انطونيو .. انا لم اقصد شيئا .

فقال على الاثر :

ـ طبعا لا تقصد ..

وبعد أن لامس خدى بموساه وجعل يحلق ببطء اردف قائلا وكأنما اراد ان يخفف من حدة رده الاول · ويلطف من كمدى :

ـ الحقيقة يا سنيور بالديتشى ان كل انسان يحب النساء ·· حتى القسيس الموجود هناك فى سان لورنزو لديه إمرأة ، وهذه المرأة انجبت لـه طفلين ·· ولو تأتى لك أن تدخل رءوس الناس لرايت ان كل انسان لديه امرأة ما فى دماغه ·· لكن ما من انسان يود ان يتكلم عن المرأة التى يدور عليها تفكيره ، لانه اذا تكلم شاع الامر ، وبدأ الناس يتقولون ·· والنساء كما تعرف لا يثقن الا بالرجال ، الذين لا يتكلمون ··

وهكذا لقننى انطونيو درسا فى أهمية السرية والتخفى فى شئون الحب ووقائع الهوى ، وتركنى مع ذلك فى شك مما اذا كان هو من طينة الرجال الذين لا يتكلمون والذين هم مناط ثقة النساء ··

واكتفيت بهذا القدر فلم اذكر مزيدا هذا اليوم بل غيرت دفة الحديث ·· بيد أن الشك تسلل الى نفسى بانه رغم كل شىء فان اتهامات زوجتى قد تكون على اساس !··

وعصر هذا اليوم جاء انجلو أكبر ابناء المزارع كما كان يجىء مرة كل اسبوع لمراجعة حساب الضيعة ·· فاغلقت عليه باب غرفة المكتب معى ، وبعد مراجعة الحساب ، عرجت بالحديث على موضوع انطونيو ، فسألته ان كان يعرفه ، وما هو رأيه فيه . . فما كان من انجلو وهو فلاح شاب أشقر الشعر تجمع هيئته بين المكر والبلاهة ، الا أن أجاب بابتسامة خبيثة قائلا :

ـ نعم ، نعم ·· اننا نعرفه ·· اننا نعرفه تمام المعرفة ··

فقلت له :

ـ يبدو لى ، والا فانني مخطىء انكم لا تحبون انطونيو كثيرا ·· فقال بعد تردد :

ـ كحلاق ، ليس هناك شك فى أنه ماهر ··

ـ لكن ··

فاستمر انجلو يقول :

ـ لكنه غريب هنا ·· والاغراب لهم طرقهم الخاصة ، كما يعرف كل انسان ·· ربما كانت الاحوال تختلف هناك فى البلد الذى جاء منه ·· من المؤكد انه لا أحد فى هذه النواحى يميل اليه ··

ـ لماذا ؟

ـ حسنا ·· بسبب اشياء كثيرة ··

وعاد انجلو الى الابتسام وهز رأسه ·· كانت ابتسامة العليم ببواطن الامور ، وكانت مليئة بالنفور من انطونيو ، وكان العيب الذى يأخذه أهل المنطقة على الحلاق كان شيئا له جانبه المضحك ·

سألته :

ـ ما نوع هذه الاشياء التى تقول عنها ؟

فرأيته ينحو الى الجد ·· وما لبث ان اجاب وهو يضغط على الكلمات فى مداهنة قائلا :

ـ لا بأس يا سنيور بالديتشى ·· اولا هو دائم المعاكسة للنســـاء ··

ـ أحقا ؟

ـ جدا .. وبصورة كبيرة لاتتصورها .. سيان عنده ان كن جميلات او قبيحات كبيرات او صغيرات ·· كل نوع يروق له .. وليس فقط فى دكانه ، حيث يذهبون عنده لتمويج الشعر ·· ولكن خارج المحل أيضا ·· يمكنك ان تسأل فى هذا اى انسان تختار ·· فى أيام الاحاد يركب

دراجته ويطوف فى الخـلاء ، كما يذهب الانســان للصيد والقنص •• هذا شيء مقرف •• لكنى أؤكد لك أنه سوف يأتى يوم يصادف فيه من يقوم بوضع حـد لالاعيبه •• -

هكذا بعد أن تجاوز انجلو حدود التحفظ المعتاد الذى كان يلتزمه ، ما لبث أن تدفق الحديث ، متخذا نغمة الوعظ والارشاد مع انحياز الى التزلف والتملق ، شأن قروى يطوع حديثه وفقا لرغائب سيده وميوله ••

قلت اقاطعه :

ـ وما هو موقف زوجته ؟

ـ زوجته المسكينة ، ماذا فى قوتها ان تفعل ؟ •• انها تبكى وتصرخ وتنفصل .. انه علمها ان تحلق للزبائن ، وبين وقت وآخر يتركها تشرف على الدكان ويركب دراجته ويقول لها انه ذاهب الى البلدة••• ولكنه بدلا من ذلك يتجول فى المنطقة بحثا عن فتاة ! •• وفى السنة الماضية فقط .. رايت ان انجلو قد امدنى بكل البيانات التى كانت أريدها .. ولم يبق عنده ما يمكن ان أتوقعه سوى مزيد من الثرثرة عن مسلك انطونيو الفاضح ، وقد بدا لى انه ليس من اللائق ان انتزع منه ما عنده واستمع اليه .. وهكذا غيرت مجرى الحديث وبعـد فترة قصيرة صرفته ..

وعندما صرت وحدى ، اخلدت الى فترة من السهوم والتأمل •• اذن فان زوجتى كانت على حق ، او انه كان هناك احتمال كبير على الاقل بأنها كانت على حق.. ان انطونيو هذا مخلوق فاسق ، بل ربما كان مرجحا انه حاول مغازلة زوجتى فعلا ••

لقد ادركت ان لغز انطونيو الذى لابد انه لا يهتم كثيرا بعمله ولا يحدب حدبا خاصا على اسرته ، ولا يهتم بشئون السياسة ـ هذا اللغز لم يعد لغزا ··

لا لغز هناك ·· ان انطونيو لم يكن اكثر من كازانوفا من النوع العـــادى .. زير نســـاء رخيص .. وتلك الاساليب الناعمة الحريصة المتكتمة التى كان يلتزمها ، لم تكن سوى اساليب رجل تحبه النساء ، لانه صموت لا يتكلم ، على حد تعبيره ··

ساورنى احساس غريب هو أقرب الى خيبة الامل ·· كنت أرجو فى قرارة نفسى ، بل يكاد دون وعى منى الا ينكشف أمر انطونيو وينفضح خفاؤه بهذه السهولة .. كنت اميل الى انطونيو كما تجلى لى الان ، لا لشىء الا لان شخصه يلابسه شىء من الغموض ، والخفاء ، أو هذا ما بدا لى أول الامر .. أما وقد تبدد الغموض وانقشع الخفاء ، فلم يبق من الصورة سوى مخلوق تافه يطوف هنا وهناك لمعاكسة النساء ·· كل النساء ومنهن فيما يرجح نساء مثل زوجتى ، بعيدات كل البعد عــن طائلته ··

كان ثمة شىء اسخطنى فى هذا الاكتشاف للسر الاساسى فى حياة الحلاق من قبل لو كنت تركت نفسى تتأثر بسخط ليدا وغضبتها : لكرهته اغلب الظن .. بيد أننى الان وقد عرفت كل شىء عنه ، فقد بدا اننى لا استشعر شيئا سوى الرثاء ممزوجا بالاحتقار ـ وهو احساس كان باعثا على المذلة والهوان ، ليس له فحسب بل كذلك بعد ان الفيتنى فجأة منحدرا الى درك منافســة مهينــة مع دون جوان قروى ··

ومع ذلك وعجب ان اقول هذا ، فقد الح على اقتناع

بانه لم يجسر حقا على رفع عينيه الى مقام زوجتى ، وانه طبقا لما ساورنى اول الامر قد اقتيد ضد مشيئته الى الاعراب عن اعجابه بها جهرة باسلوبه الخاص ٠٠ وكون انه رجل فاسق فان هذالم يكنمن شأنه فى نظرى ان يبدد هذا الاعتقاد ٠٠ بل لقد كان فيه تفسير تلك السهولة التى اقترنت بسرعة انفعاله لدى أول احتكاك عابر ـ تلك السهولة المفهومة دواعيها فى مراهق مشاعره دائمـا متحفزة تقوده وترديه ولكنها غير ممكنة فى رجل مجرب فى الاربعين يفترض فى مشاعره فتور الحدة والهدوء ٠٠ ان الفاسق وحده الذى اعتاد ان ينمى غرائز بعينيها الى حد يطغى على كل ما عداها من الغرائز والمشاعرهو الذى تكون مشاعره بهذه الاستجابة الفورية وهذه الغلبة القاهرة ٠٠

اننى ذهبت فى هذا التفكير الى حد أبعد هو التسليم بانه يكره كل الكراهية ان يجد نفسه فى هذا الموقف المحرج ، وانه استسلم له وقاومه فى وقت واحد ٠٠ لكن لم يقم لدى ادنى شك فى ان فعله هذا لم يكن عن عمد وتدبر ، بل كان شيئا عرضياوليد وقته ٠٠

ومن المحتمل ان هذا التفكير من جانبى فى الميل الى اعتبار انطونيو بريئا الى حد ما (ومازلت حتىالان اعده كذلك) ربما كان وليد أنانيتى أو بالاحرى خوفى من أن اطرده واتولى حلاقة ذقنى بيدى ٠٠ ولكن حتى لو صح هذا ، فاننى لم أكنواعيا به حقا ٠٠ اننى فكرت فى الامر كلـه بموضـوعية مطلقـة ٠٠ وغالبـا ليس كالموضوعية ـ اعنى نسيان الروابط التى تربط الامور وبواعثها الذاتية ، ليس كالموضوعية شىء يشجع على التضليل وخداع النفس ٠٠ فالى جانب اقتناعى ببراءة

انطونيو وشعورى بالرثاء والاحتقار اللذين اصبحت الان اكنهما له ، لابدأن اضيف الى هذا وذاك رد الفعل المبالغ فيه من جانب زوجتي ، الذى دمر منذ اللحظة الاولى كل سبب للغيرة اذا انا تصورت أن أكون نهبا لها ·· اننى بطبعي لست ممن يغارون أو على الاقل هذا ما أظنه فى نفسى ·· فى طبعى كل عاطفة انفعالية تذوب فى النهاية فى وعاء التفكير والتحليل ، كما تذوب المادة فى الحمض ·· ان هذا اسلوب امثل للتحكم فى العواطف والانفعالات ، اذ يدمر فى وقت واحد قواها المستبدة وتاثيرها الغشوم ، كما يدمر أسباب العذاب والمكايدة المتولدة عنها ··

وبعد حديثى مع انجلو القروى ، خرجت كالعادة للقيام بجولة مع زوجتى ولاول مرة شعرت صدقا اننى أخدعها ·· فقد كان ينبغى أن أخبرها بكل ما عرفته من أمر انطونيو ·· بيد اننى لم اشأ ان افعل هذا لعلمى اننى لو فعلته لاذكيت فى نفسها باشد ضراما ، لهب الغضب الذى بدا الان وقد خبا ··

وأخيرا قلت لها وانا نهب للتردد ووخز الضمير فى لحظة بدت فيها وكأنها ساهمة شاردة الفكر :

ـ ربما كانت ما تزالين تفكرين فى مسلك انطونيو القابل الاحترام ·· اننى على استعداد لطرده اذا كنت تريدين هذا فعلا ··

فى ظنى لو أنها سألتنى هذا ، لحققت رغبتها هذه المرة ·· وانما كانت النتيجة صدمة لى ·· وما كنت انتظر سوى تشجيع يسير منها لكى يكون لها ما تريد ·· لقد رأيتها تنتفض وقالت :

ـ تفكر فى الحلاق ؟ ·· لا ·· لا ·· لا بالمرة ·· اقول

لك الحقيقة ، اننى نسيت كل شىء عنه فعلا ٠٠

ـ لكن اذا أردت ، فاننى سأطرده فى الحال ٠٠٠

قلت هذا بالحاح وقد شجعنى ما آنست من عدم اكتراثها هذا الذى بدا لى موسوما بالاخلاص التام ٠٠ فقالت :

ـ لكننى لا أريد أن تفعل هذا ٠٠ هذه مسألة لا تهمنى فى شىء ٠٠ والحقيقة ، فيمايختص بى ، فهى فى نظرى وكأنه لم يحدث أى شىء بتاتا ٠٠٠

ـ اننى كنت أظن ٠٠٠

فوضعت حدا للنقاش بقولها وهى أقرب الى السهوم :

ـ هذه مسألة تخصك ، وتخصك وحدك ، لسبب واحد ، هو أنك أنت وحدك الان الذى يمكن أن يتضايق أو لا يتضايق من وجوده هنا ٠٠

ـ أقول لك الحق ان وجوده لا يضايقنى ٠٠٠

ـ اذن لماذا تفكر فى طرده ؟ ٠٠٠

سرنى منطقها هذا ، وان استشعرت رغم ذلك لونا مبهما من خيبة الامل ٠٠ ولكن كان مقدورا لى ، فى هذه الفترة ، أن تحجب السعادة العارضة بهذه النتيجة المرضية شيئا آخر ، هو وجوب تحليلى لكافة المشاعر التى جعلت تنتابنى واحدا بعد الاخر ، ووزنها بميزانها الصحيح ٠ ٠ ٠

وفى اليوم التالى جاء انطونيو مرة أخرى ، وقد استرعى نظرى مع الدهشة ان ذلك الاستهواء الغريب المقترن كما هو لم يمسه شىء ... والواقع ان ذلك الخفاء الذى كنت أحسه من ناحيته قبل ان أعرف شيئا عنه بشخصيته لم تبدده معلومات انجلو القروى منه ، بل بقى الان ولم يذهب ، حتى بعد أن بدا لى انى

عرفت كل شيء . . كل ما هناك ان ذلك الخفاء قد ازيح الى الخلف وارتد الى منطقة اقل ارتيادا . .وقد وجدتنى أفكر فى أنه مثل كل خفاء يتصل بأى لغز آخر ، كبيرا كان او صغيرا : اى ان كل ما يتصل باللغـــز ممـــكن تفسيره ، الا وجود اللغز ذاته . . .

الفصل التاسع

مضيت فى الايام التى تلت أعمل بقوة دافعة وسهولة ويسر كانت تتزايد باطراد كلما اقتربت من نهـــاية مهمتى ٠٠٠

واستمر انطونيو يحضر صباح كل يوم ، وكنت أنظر اليه ، بعد أن ذهب الارتباك الاول ، بفضول جديد لم يفتر منه شيء ٠٠٠

كنت أشعر الان أن ثمة روابط بينه وبينى ٠٠ وكان يمكننى أن أفصم هذا الرباط فى مستهل عهده لو اننى طردته طبقا لما اقترحته زوجتى٠٠ لكننى لم أفعل ، ونتجت عن هذا علاقة جديدة ، صامتة ولكن محسوسة ٠٠ واجد من الصعب أن أفسر الاحساس الذى كانت هذه العلاقة تهيئه لى ٠٠ فى أول الامر كان بينى وبين انطونيو العلاقة المألوفة التى تقوم بين الاعلى والادنى ٠٠ وبعد الاتهام من جانب زوجتى ، فان هذه العلاقة عراها التبديل : فان الاعلى كان ايضا هو الزوج الذى اعتدى على شرفه أو الذى قد يعتقد أن شرفه اعتدى عليه ، وكان الادنى هو أيضا المعتدى أوالذى قد يعتقد أنه هو المعتدى ٠٠ بيد أن هاتين العلاقتين كانتا شيئا عرفيا محضا ، اذ

انهما قامتا فى واقعهما : الاولى على الحالة الافتراضية للتبعية والسلطة المستمدتين من اعطاء وأخذ الاجر ، والثانية على نفس الحالة الافتراضية وهى الالتزام الادبى المفروض بحكم الرابطة الزوجية ·· وفى اقتراح زوجتى بانه يجب طرد انطونيو ، فانها اقترحت فى الواقع أنه يتعين على قبول هذين العرفين دون أن أضع فى الاعتبار العوامل الخاصة الفعالة فى القضية ·· اننى رفضت اقتراحها ، ولم أطرد انطونيو .. والان فانى شعرت ، كنتيجة لرفضى ، بأنه قد نبتت بينه وبينى علاقة جديدة كانت أكثر واقعية ، لانها قامت على الموقف كما كان ، وليس كما كان ينبغى أن يكون ··وشىءواحدفقطهوأن هذه العلاقة لم يكن ممكنا توصيفها ولا تحديدها ، وكانت تفتح الباب لاية نتائج محتملة ·· كنت أعرف أنه بعد أن رفضت أن أتصرف كما كان يتصرف أى شخص آخر فى مكانى ــ أى كشخص أعلى وكزوج ــ فاننى مهدت الطريق لكل أنواع الاحتمالات ، مذ كان كل شىء يعتمد الان على التطورات فى الموقف الواقعى ، مستقلة عن العرف ، الذى وجدنا انفسنا فيه ·· لقد رأيت ، جوهريا ، ان المسلك الذى اقترحته على زوجتى ، وهو مقرر فى العرف والتقليد ، كان هو المسلك الوحيد الممكن التمسك به ، اذا أراد الانسان أن يبقى للموقف مظهرا خارجيا مقررا .. وفى خارج نطاق هذا المسلك فان كل شىء كان محتملا ممكنا ·· هذا المسلك كان يسمح لكل منا بان يلتزم دورا معروفا مقررا ·· وخارج هذا المسلك فان شخصياتنا المميزة أصبحت غائمة ، مبهمة ، ضبابية ، قابلة للتغيير الداخلى ···

ان هذه التأملات جعلتنى افهم فائدة المعايير الادبية

والتقاليد الاجتماعية التى هى بالطبع مظهر خارجى ، ولكنها ضرورية لمنع الفوضى الطبيعية وتطويعها الى جادة النظام ·· ومع ذلك فقد رأيت ، من الناحية الاخرى ، انه اذا جرى نبذ المعايير الادبية والتقاليد الاجتماعية ، فان هذه الفوضى نفسها لابد بحكم الضرورة أن تتوقف مكانها وتتشكل على أساس من الضرورة الصرفة .. وبعبارة اخرى ، فانه بعيدا عن الحل الذى اقترحته زوجتى ،بقى هناك حل آخر يمكن أن تفرضه الطبيعة الواقعية للظروف ·· والموقف هنا أشبه بنهر اما أن يحدد طريقه بين ضفاف صناعية ، واما أن يترك لكى ينتشر طبقا لطبيعة الارض وانحدارها : فى كلتا الحالتين ، وان كان بأساليب مختلفة ومع نتائج مختلفة ، فانه سوف يشق له مجرى خاصا به قد ينطلق منه الى البحر ·· ولكن هذا الحل الثانى ، الاكثر طبيعية والاشد خطرا ، كان لا يزال بعيدا عن الاحتمال وقوعه بحال ·· فان انطونيو يمكن أن يستمر فى المجىء وحلاقة ذقنى ، وانا أتم عملى ، وفيما بعد نرتحل أنا وزوجتى ، دون أن يتاح لى قط أن أعرف مدى ما كان من صدق فى اتهاماتها . انني استطيع الان أن أستعرض هذه التأملات بكيفية منظمة واضحة ·· ولكنها ، فى وقتها ، لم تكن تأملات بقدر ما كانت مشاعر مبهمة ···

وقد يبدو مثيرا للدهشة انه كان على أن أفكر ، أو بالاحرى أشعر ، على هذا النحو فى ذات اللحظة التى يقع فيها هذا الامر ويأخذ فى التطور تحت سمعى وبصرى ، وحين تستهدف أعز الاشياء عندى للضرر .. لكننى أود أن اكرر ما قلته قبل الان أكثر من مرة : من اننى كنت منهمكا فى عمل ادبى خلاق (أو هذا ما ظننته)

وكل شيء عداه لم يكن بذى بال عندى · وبالطبع فاننى لم اتوقف عن حب زوجتى ، وعن تمسكى بشرفى ·· ولكن الغريب المعجز فى الامر هو أن الخلق الفنى قد رفع خاتم الالحاح والاهمية الثقيل لهذه الامور ، ونقله الى صفحات الكتاب الذى كنت منهمكا فى تأليفه ·· ولو ان زوجتى ، بدلا من أن تتهم انطونيو بانه كان قليل الاحترام نحوها ، قد ابانت لى انها شاهدته وهو يمسح موساه فى احدى صحائف قصتى ، لكان من المؤكد الا أتأمل فى جهله أو عدم شعوره بالمسئولية ، ولكنت طردته فى الحال ·· ومع ذلك فان مثل هذه الغلطة كانت بالتأكيد ادنى الى الفهم واكثر تبريرا واقبل للعفو من الغلطة التى نسبت اليه ·· ما الذى جعلنى غير مكترث بما فعله فيما يتعلق بزوجتى ، وجعلنى من الناحية الاخرى أكثر عرضة لرد الفعل العنيف ازاء احتمال اتلافه لعملى ؟ ·· كان هذا هو اللغز الذى ألفيته ماثلا أمامى والذى تجلى لى فى شخصه منذ البداية ، اللغز الذى لم تفلح بيانات انجلو القروى فى تبديده ، والذى كان فى الحق ماثلا فى ذاتى أكثر منه فى انطونيو ·· انه اللغز الذى ، مهما يكن مجال القول والعمل ، يخلق وسوف يخلق على الدوام كلما تجاوز الانسان سطح الاشياء وهبط الى الاعماق ·

اما فيما يتعلق بزوجتى ، فانها لم تعد تأتى وتنضم الى عندما كان انطونيو يحلق ذقنى ، واظن انها كانت تلازم غرفتها الخاصة حتى ينصرف الحلاق من البيت ·

ان هذا المسلك ضايقنى فى النهاية ·· لانه اظهر انها كانت متمسكة برد الفعل التقليدى الاول عندها ، ولم يكن فى نيتها أن تستعيض عنه باتجاه يماثل اتجاهى القائم على المنطق والتأمل ···

لقد سألتها ، وان كنت لا اذكر اين ولا فى أية مناسبة ، لماذا لم تكن تظهر بتاتا الان فى فترة الصباح ·· فردت على مباشرة ، دون أى استياء ولكن فى شىءيسير من نفاد الصبر :

ــ لكن يا سيلفيو ·· الواقع اننى أحيانا أكاد اشك فى ذكائك ·· كيف يمكن أن أظهر ؟ ·· ان هذا الرجل لم يجد العقاب على قحته ·· واذا أنا ظهرت فقد يظن اننى نسيته ، أو أسوأ من ذلك ·· بعدم ظهورى فاننى أدع له أن يظن اننى فضلت اجتناب الفضيحة وهكذا لـم أخبرك ···

ولست أدرى أى شيطان خبيث حفزنى أن أقول لها :

ــ يمكن أيضا أنه فكر فى انك لم تلاحظى شيئا ·· وهذا يجعل الامر اسوأ ·· انك بهذا التصرف تجعلينه يظن أنك لاحظت فعلا ·· وانك رغم هذا لا تفعلين شيئا فى الموضوع أو تجعليننى أفعل شيئا ··

فأجابت بهدوء :

ــ ان الشىء الوحيد الممكن كان طرده فى نفس اليوم ·

الفصل العاشر

أخيرا جاء اليوم الذى كتبت فيه آخر كلمة فى نهاية آخر سطر فى آخر صفحة ، وطويت الكراسة التى اشتملت على قصتى ··

وبدا لى اننى اتممت جهدا ضخما واننى عملت وقتا طويلا لا حدود له ·· والواقع اننى سطرت ما يوازى نحو مائة صفحة مطبوعة ، وعملت أكثر من عشرين يوما أو نحو ذلك ···

ويممت شطر النافذة والكراسة فى يدى وأخذت أقلب الصحائف بحركة آلية ·· ان الدموع انبثقت من عينى ، وسواء كان هذا من الفرح أو الاعياء فى ختام جهودى المضنية ، فهذا ما لم أعرفه على وجه التحديد ·· ولم أتمالك أن فكرت انه فى بطن هذه الصحائف قد احتشد ابدع نتاج فى حياتى ، بل فى الواقع كل شىء يمكن منذ الان ان يجعل للحياة قيمة ، سواء للماضى أو فى المستقبل ·

ورحت أقلب الصحائف بتؤدة ، وفيما كنت أحدق فيها شعرت بذعرى تسرى فيه عتمة ، وبالدموع تسقط على يدى ·· ولم ألبث أن رأيت انطونيو يعبر الممشى المغطى

بالحصى فوق دراجته ، فسارعت بوضع الكراسة فوق المكتب وكفكفت دمعى ٠٠٠

وبعد انصراف انطونيو ذهبت الى غرفة نومى ، وبينما كنت ارتدى ملابسى جعلت كالمعتاد أفكر فى العمل الذى اتممته ٠٠ فى الايام الاخرى كان من عادتى ان أفكر فقط فى الصفحات التى كتبتها فى ذلك الصباح ذاته ، ولكننى اليوم ، لاول مرة ، جعلت اتلذذ بالقصة كلها واديرها فى ذاكرتى باعزاز ومحبة من البداية الى النهاية ٠٠ هنا امامى يمثل الان العمل الذى كنت اسميه رائعتى ، تامة سوية ، وقد أصبحت الان قادرا على الاستمتاع بها فى كليتها وتمامها ، كما يستمتع المرء بالمشهد الطبيعى الشامل بعد صعود طويل شاق لم يكن يبصر فى خلاله سوى لمحات جزئية من المشهد ٠٠ لكن هذه الاشياء لا يمكن الا تقريرها ، لا وصفها ٠٠ وكل ما استطيع قوله هو اننى بينما رحت أفكر فى قصتى ، فقد بدا لى الزمن وقد توقف فى شبه نشوة ، فلم افطن الا وقد فتح الباب فجأة ، وظهرت زوجتى فى مدخل الغرفة قائلة :

ـ ماذا تفعل بالله ؟ ٠٠ الغداء جاهز ٠٠ هو جاهز منذ ثلاثة أرباع الساعة ٠٠

كنت جالسا على الفراش بردائى المنزلى ، وكانت ملابسى لا تزال ملقاة على المقعد حيث وضعتها فى الليلة الماضية ٠٠ ونظرت الى ساعة يدى ٠٠ كان أنطونيو قد انصرف فى نحو الساعة الواحدة الا الربع ، والان كانت الساعة الثانية ٠٠ اذن فقد أمضيت ساعة وربع ساعة جالسا فوق الفراش وفى قدمى جورب والجورب الثانى فى يدى ٠٠ وهكذا لم أتمالك أن قلت لزوجتى وقد انتفضت بعنف من فرط الدهشة :

ـ أنا آسف .. لا أعرف ماذا حدث لى .. سآتى فى الحال ..

ولبست على عجل ، ولحقت بها فى الطابق الارضى .

وفى فترة العصر ، عندما خفت حدة الحماسة ، أخذت الاسئلة تتشكل فى ذهنى .. كنت قررت أن اقرأ القصة لزوجتى عنده أفرغ منها .. اننى كنت اثق فيها اكثر مما أثق بنفسى ، بل اكثر مما أثق بأى ناقد أدبى مهما يكن .. لم تكن كما قلت من قبل ، امرأة مثقفة ، ولم يكن لها علم بشئون الادب ، وكان اهتمامها بالكتب هو اهتمام انسان عادى يقصر هذا الاهتمام على الحقائق أكثر مما يكرسه للاسلوب .. ولكننى من أجل هذه الاسباب ذاتها ، ولاننى كنت أعلم أن حكمها سيكون بدرجة قلت أو كثرت هو حكم الجمهور الجاهل ، فلقد كنت أثق فيها ..

كنت أعرف أنها ذات حيوية ونشاط ، ذكية بدرجة كافية ، صادقة الاحساس لا يمكن خداعها بسهولة .. نعم كنت أعلم أن حكمها قد لا يكون كافيا لتقديم فكرة دقيقة عن القيمة الادبية البحتة لقصتى ، ولن يمكن بالتأكيد أن تساعدنى فى أن أفهم هل الكتاب فيه حياة أو هو مجرد منها .. ومهما يكن من شىء ، فانه فيما يتعلق بأى كتاب يكون الاعتبار الاول الذى يجب مراعاته هو حيوية الكتاب فى عمومه .. فهناك كتب غير مكتملة ، رديئة مختلطة ، غير مرتبة ، ولكنها مع ذلك حية ، نقرأها وسوف نقرأها دائما .. وهناك كتب مكتملة مستوفاة بكافة التفاصيل ، محبوكة الفكرة ، جيدة البناء ، مرتبة ، مصقولة ، ومع ذلك فهى ميتة ، ورغم كل اكتمالها ، فاننا نحتار فى أمرها ، فنعرض عنها وننبذها نبذا .. كان هذا اقتناعى بعد أعوام طويلة من القراءة وممارسة النقد ..

وهكذا كان يتعين على فى المقام الاول أن أعرف ان كان كتابى حيا ، وبما كان لاحد أن يفصل لى فى الامر من هذه الناحية سوى زوجتى ..

وينبغى أن أقول اننى تأهبت لهذه المحاكمة التى كنت أعدها ذات أهمية بالغة ، بهدوء عقلى تام .. نعم اننى مازلت فى شك من القيمة الادبية لقصتى اذ كنت لم أعد قراءتها وكان لدى انطباع بأننى كتبتها وأنا أقرب الى العجلة .. ولكن فيما يتعلق بحيويتها فقد بدا لى أنه لا يمكن أن يكون ثمة شكوك فى هذا الصدد .. ألم يكن من شأن تلك العوامل المثبطة القائمة على الجدب الفكرى والمشقة والعجز وقصور العمل والسفسطة ، وهى العوامل التى ظلت تعذبنى طوال حياتى والتى أنضت بى فى النهاية الى التوقف والجمود كلما حاولت الكتابة ـ ألم يكن من شأن هذه العوامل أن تزول تدريجا وتتلاشى شيئا فشيئا كلما تقدمت فى الكتابة ؟ ألم أكن أشعر وأنا ماض فى كتابتى كان سدا قد تفجر فى صدرى ، وان كل ما كان يحجزه خلفه قد أفلت ، لا لكى يجرى ساكتا كجدول ، ولكن يشق طريقه شقا ويجيش بالفيض الدافق ؟ .. ألم أشعر حقا طول الوقت أن جوهر ذاتيتى قد انعكس فى صدق واخلاص فيما كنت أكتبه بنفس القدر الذى كان ينطبع منهما فى شغاف قلبى وصميم وجدانى ؟ .. ان هذه الحجج وغيرها كانت تطوف بذهنى وتعذبنى لكى أواجه بصفاء وسكينة اية انعكاسات قد تنطبع فى نفس زوجتى لدى قراءة القصة ..

وكان لا يزال ثمة صعوبتان عمليتان .. فان النسخة الخطية ، وان لم تكن مختلطة بقدر يتعذر قراءته ، كانت تتضمن كثيرا من الكلمات المحذوفة والاضافات فيما بين

السطور ، مما قد يجعل قراءتها شيئا مربكا وملتبسا ..
وقد اضطر لدى القراءة الى التوقف فى مواضع معينة والمعاودة لكى أستعيد اتصال المعنى ، وبهذا أنسد السحر والحلاوة الذين كنت اريد لهما أن يبقيا كاملين غير منقطعين .. وفى غمرة التعجل التى اكتنفت الكتابة الاولية ربما اكون نسيت تفصيلات معيشة ومحسنات يقتضيها المقام ..

وفى أثناءجولة لى مع ليدا كنا نتحدث فيها فى شئون عادية ، عرضت لهذه المسألة ورحت أناقشها فى الحجج المؤيدة والمعارضة لموضوع قراءة القصة لها فى نفس هذا اليوم .. وفى النهاية استقر عزمى على ارجاء القراءة نحو عشرة ايام ، أعمل فى خلالها على نسخ القصة على الالة الكاتبة .. كنت أعلم أننى فى أثناء عملية النسخ استطيع تقويم كثير من المواطن التى ينكشف نبوها ، واستكمال ما يبدو نقصه .. وبهذا يمكن تقوية الاسلوب واستبعاد كل فجاجة والتواء .. يضاف الى هذا ، وكانت هذه حجة مرجحة فاصلة ، فاننى مستطيع فى غضون عشرة أيام أخرى أن أستمتع برائعتى وهى مازالت مكنونة بين يدى لم تقدم للنشر .. والواقع أن هذا الاعتبار الاخير زاد فى اقتناعا فى النهاية ..

وكنت قد أحضرت آلتى الكاتبة معى من روما .. وكانت جديدة ، أو نحو ذلك ، لاننى لم أستخدمها الا فى كتابة خطابات للاعمال العادية ومقالات قليلة .. وكانت أمريكية الصنع ، من افضل واحدث ما يمكن اقتناؤه ، وكانت مزاياها الكبيرة تملا نفسى أحيانا ، فى فترات العقم والجدب ، مرارة وكمدا .. كان يبدو لى أننى مجرد واحد من أولئك الكتاب الاغنياء القاصرين الذين

يملكون كل شيء لكتابة احدى الروائع ـ من مال ،ووقت، وغرفة مكتب وثيرة هادئة ، وورق من أفخر الانواع ، واقلام من أجود الاشكال ، وآلات كاتبة من أحدث طراز ـ كل شيء مملوك متاح لهم ، الا العبقرية ·· ان مثل هذا الرجل يتطور به الامر الى أن ينظر فى حسد الى ورق الكراسة الرخيص الذى ينبش فيه شاب مغمور يتضور جوعا سطورا قليلة بالقلم الرصاص طبقا لما يواتيه من الهام عابر خاطف وهو جالس فى ركن مقهى ، أو مطعم شعبى ·· أما الآن ، فان الشعور بالمرارة من أثر العقم والجدب والذى كانت تبعثه فى نفسى التى الـكاتبة الجميلة ، وكل ما تحت يدى من كافة المناعم الاخرى ، ما لبث أن زال وتبدد ·· كان عندى الثروة ، وكان عندى الفراغ ، ولكننى وفقت الى الخلق والابداع ·· كان الورق النفيس ، وغرفة المكتب الوثيرة ، والمكتبة الحافلة ، والالة الكاتبة الحديثة ـ كل أولئك كان متاحا لى ـ ولكن أتيح لى أيضا أن أخلق وأبدع ··

ان أمثال هذه التهيؤات تملأ ، فيما أعتقد ، حياة أهل الخلق والابداع ، أو الذين يظنون أنهم من أهل الخلق والابداع ··

ولكننى عندما ذهبت عصر هذا اليوم ذاته لفحص آلتى الكاتبة ، والتأكد من أن كل شيء فيها على ما يرام ، وجدت أننى نسيت فى روما ورق الكتابة الخاص بها .. وكنت أعلم أنه لا سبيل الى وجود هذا النوع من الورق فى القرية ، وهكذا قررت أن أبتاع ما أريد من البلدة ، وكان بها مكتبة تزود مكاتب المنطقة بحاجتها ··

على أنه كان يستحيل أن أذهب الى هنـاك فى نفس اليوم ، لان مركبة المزارع التى يجرها حصان وهى

الوسيلة الوحيدة المتاحة للانتقال قد ذهبت فى دورتها فى الصباح ‥ وهكذا رسمت أن أذهب فى الغد ‥

وفى هذا المساء ذاته أخبرت زوجتى برحلتى المزمعة ، فقلت لها اننى ذاهب الى البلدة لشراء بعض الحاجيات ، ولكننى لم أحدد لها ما أشتريه ، وعرضت عليها من قبيل الشكليات أن تصحبنى ‥ وقد قلت (الشكليات) لاننى كنت أعلم أنه لا مكان لها فى المركبة الصغيرة وأنها لا ترضى عن مثل هذا النوع البطىء غير المريح ‥ وعلى أى حال فاننى لم أكن آسفا لعدم مجيئها ، فقد كنت من شدة السعادة الى حد أن الوحدةكانت أفضل عندى من الصحبة ‥ وطبقا لما توقعته فانها رفضت دون أن تبدى حتى أدنى تعقيب على الغرض من رحلتى ‥ وبعد فترة سألتنى :

ــ ومتى تعود ؟

ــ قريبا جدا .. على أى حال ساعود فى موعد الغداء ‥

فصمتت ‥ ثم أضافت تقول بلهجة عرضية :

ــ وما العمل اذا جاء الحلاق ؟

ففكرت برهة ، ثم أجبت قائلا :

ــ سأعود بالتأكيد قبل حضوره ‥ واذا تصادف أن تأخرت لاى سبب فاطلبى منه أن ينتظر ‥

وكنت مدفوعا فى هذا الرد بنفورى من أن أضطر الى الحلاقة لدى أحد حلاقى البلدة والتعرض لامواسهم التى تستعمل للزبائن الاخرين ‥ ان أنطونيو لم يكن يحضر معه شيئا على الاطلاق ، فان كافة أدوات الحلاقة كنت أجىء بها من عندى ‥

لم نقل شيئا ، وغيرنا موضوع الحديث . .

الان وقد أتممت عملى ، فقد شعرت بحبى لزوجتى يعود قويا كما كان من قبل ، بل أقوى مما كان ٠٠ أو بالاحرى فاننى كنت احبها طول الوقت ، ولكن فى خلال تلك الايام العشرين التى أمضيتها فى العمل ، فاننى أوقفت التعبير عن حبى ٠٠

كنا جالسين الى المائدة فى غرفة الطعام الصغيرة ٠٠ وكانت ليدا كعادتها بملابس المساء ، مرتدية ثوبا رشيقا ابيض اللون ذا خطوط طويلة ، ومنفرجا عند الظهر،وبه حواش مدلاة أشبه بالشال المألوف لدى ربات الاغريق ٠٠ وتحلت من حول العنق والاصابع وفى طرفى الاذنين بمجوهراتها التى كانت كلها كبيرة الحجم بالغة النفاسة ٠٠ وأضاء نور المصباح المظلل فى وسط المائدة ملامح وجهها بضوء رقيق ذهبى ٠٠ وكان محياها مستكمل الزينة ، صنعتها يد خبيرة ، وظلت محافظة بالتصفيف الملفوف الذى ابتكره أنطونيو لها ٠٠

لقد استرعى نظرى لاول مرة أن وجهها الطويل النحيل ، قد اكتسب بعد أن كفت عن ارسال خصلات الشعر من حوله ، صورة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن تلك الصورة التى ألفتها منها .. فقد بدا أصغر سنا . واقل اكتئابا ، وحلت به مسحة حسية قاسية متأصلة .. وظهرت بجلاء بعد أن ذهب عنهما الشعر المرسل الذى كان يداعبهما ويرقق منهما ، عيناها الكبيرتان الزرقاوان القلقتان ، وتوتر خيشوميها ، وابتسامة فمها الكبير ٠٠ لقد بدا وكأنما نزع عنها شىء كان يسترها ، فغدت أقرب الى واقعها ، ومظهرها أكثر شبها بآلة اللذات عند الاغريق .. ولتأكيد هذه الصورة فان زوجتى عمدت ، مثلما كان يوم حادث أنطونيو ، الى رشق أعواد من

الزهور الحمراء فى شعرها الذهبى عند الصدغ الايسر ٠٠ وعندما نظرت اليها وهى هكذا قلت لها :

ـ هل تعرفين على اى حال أن تصفيف الشعر الذى عمله لك أنطونيو يناسبك تماما ؟ ٠٠ ان هذا هو ما لاحظته الان فقط ٠٠

بدا لى أنها انتفضت انتفاضة يسيرة جدا لا تكاد تدرك لدى ذكر اسم الحلاق ، واسبلت عينيها ٠٠ وراحت بأصابعها الطويلة تدير السدادة البلورية الكبيرة لزجاجة الشراب ، حتى بدت السدادة وهى بين أظفارها المدببة المصبوغة بلون العقيق وفى ضوء المصباح كأنما هى ماسة ضخمة تلمع فى جوفها الاضواء الباهرة ٠٠ وقالت بتؤدة :

ـ ان فكرة تصفيف شعرى هكذا لم تكن فكرة انطونيو ٠٠ انها فكرتى ٠٠ وكل ما فعله هو أنه نفذها طلبته منه .. ونفذه بشكل ردىء ..

ـ وكيف فكرت فى هذا التصفيف ؟ ٠٠

فأجابت :

ـ اننى اعتدت تصفيف شعرى هكذا عندما كنت فتاة منذ سنوات طويلة هو تصفيف يلائم النساء الشابات (وابتسمت ابتسامة يسيرة) واما النساء المتوسطات العمر ، مثلى ٠

ماذا تقصدين بمتوسطات العمر ؟ ٠٠ لا تقولى مثل هذا الكلام السخيف ٠٠ ثم ان هذه الازهار تلائمك بصورة رائعة ٠

ودخلت الخادمة واخذنا نملأ اطباقنا فى صمت .. وعندما خرجت مرة أخرى وضعت الشوكة والسكين من يدى وقلت لها :

ـ انك تبدين اليوم وكأنك شخص مختلف تماما ، وبعبارة أخرى فانك انت دائما ، ولكن بمظهر جديد .

وتملكنى فجأة انفعال شديد واضفت اقول همسا :

ـ انت جميلة جدا ياليدا .. ربما كنت انسى هذابين وقت وآخر ·· ولكن الوقت يحين دائما لكى أتأكد اننى احبك اعمق الحب ·

فمضت تأكلولم تجب ·· لكن لم يكن ثمة أثر للازدراء بدا فى هيئتها بل فى الواقع شاع فى محياها لون من الرضا ، تجلى فى رجفة فتحتى انفها واسبال اجفانها ·· كانت هذه طريقتها فى قبول الاطراء الذى يروقها وكنت اعهد فيها ذلك .. ومن جديد طغى على شعور الحب فوضعت يدى على يدها وغمغمت هامسا :

ـ هاتى قبلة ·

فرفعت عينيها ونظرت الى وقالت ببساطة وربما بغير سخرية متعمدة :

ـ هل اتممت عملك ؟

فقلت كذبا :

ـ كلا . لكننى لاأستطيع انانظر اليك دونان أحبك ودون ان اريد تقبيلك ·· ليذهب عملى الى الجحيم ! ·

قلت هذا وجذبتها من ذراعها حتى مالت الى ناحيتى ·· وقاومتنى وهى مقطبة وقد تراوح شعورها بين الجد والامتثال وقالت بصوت ملىء بالحب :

ـ انت مجنون ! ··

ولم تلبث ان استدارت فجأة واعطتنى القبلة التى طلبتها مباغتة خاطفة ، ولكن صادقة ·

شعرت فى تلك القبلة الطائرة التى بدا وكأننى انتزعتها من شفتى زوجتى لا تلقيتها منهما ، باننى عدت

الى أيام الصبا واننى فى خطر من مباغتة أم صارمة بدلا من خادمة عجوز وفية لن تكون فى حرجها الا متعاطفة.
وعدنا الى الهدوء فى اثر القبلة وكأننا طفلان هى صافية هادئة ، وانا لاهث الانفاس الى حد ما ·· بيد ان الخادمة لم تدخل ، فنظرت الى زوجتى ثم حاولت ان اضحك ، من نفسى ومنها وانا اربت على يدها.فأثارذلك ارتيابها حتى قالت :
ــ لماذا تضحك ؟!
فقلت :
ــ انا آسف ·· اننى لا أضحك منك ·· انا اضحك لاننى سعيد ·
فاسبلت عينيها ، وقالت بصوت هادىء وهى تعود الى الاكل ؟
ــ وماالذى يجعلك سعيدا هكذا ؟
لم استطع هذه المرة أن أقاوم ، فقلت بصدق واخلاص :
ــ لاول مرة فى حياتى انال كل شىء كنت أريده .
ــ وما هذا الذى كنت تريده ؟ ··
فقلت ،
ــ منذ سنوات وسنوات كنت أريد ان احب امرأة وان تحبنى هذه المرأة ·· والان فاننى احبك ، وانت ــ كما اعتقد ــ تحبيننى ·· ومنذ سنوات وسنوات كان لى طموح الى كتابة شىء خالد ، شىء حى شىء به شاعرية ·· والان وقد اتممت قصتى ، فان بوسعى ان اقول اننى حققت هذا الامل أيضا ·
كنت قد قررت الا أحدث زوجتى عن القصة حتى افرغ من نسخها على الالة الكاتبة ·· لكن فرحتى كانت عظيمة الى حد اننى لم استطع مقاومة الاغراء ··

ان رد الفعل عندها لهذا النبأ اثار دهشتى رغم انى كنت اعرف انها تحبانى وانها تهتم اهتماما حيويا بكل ما افعله ٠٠ فقد هتفت تقول فى ابتهاج طاب لى وازدهانى لانه كان مخلصا صادقا :

ـ هل فرغت ؟ ٠٠ هل فرغت ؟ ٠٠

وكان لنبرات صوتها رنين ساحر وهى تقول لى :

ـ آه ياسيلانيو ولم تقل لى شيئا عن ذلك ؟؟

فقلت لها :

ـ لم أقل شيئا لانى وان كنت فرغت بالمعنى الحرفى للكلمة ، فانه مازال امامى أن أنسخ القصة على الالة الكاتبة .. وهكذا فاننى فى الحقيقة أن افرغ من القصة الا بعد أن أكون قد أتممت نسخها .

ـ هذا لا يهم ٠٠ لقد فرغت وهذه لحظة عظيمة ! ٠٠ يجب ان نشرب نخب كتابك ! ٠

كان اسلوبها ساحرا ، مفعما بالمحبة واستقرت عيناها الجميلتان اللامعتان على هيئتى جاقلتين بالاغراء .. فصببت بعض الشراب فىكأسينا ثم رفعناهما الى ما فوق المائدة ، وقالت بصوت خفيض وهى تنظر الى :

ـ نخبك ، ونخب كتابك ! ٠٠

فشربت ورايتها تشرب ٠٠ ولم تلبث ان وضعت الكاس ومالت نحوى وقدمت لى شفتيها ٠٠

هذه المرة كانت قبلة حقيقية طويلة وحارة ، ولم نلاحظ الا بعد انتهاء القبلة ان الخادمة كانت قد عادت الى الغرفة ووقفت تنظر الينا متكئة على خوان جانبى والصفحة بين يديها ٠

ـ تعالى يا آنا ، لابد أن تشربى أنت ايضا !٠٠ هذا يوم عظيم ! ٠٠

قالت زوجتى هذا للخادمة بذلك الاسلوب الامر الطبيعى الرشيق الذى كان يهيىء لها ان تحسن التصرف فى المناسبات الاجتماعية المربكة ٠٠ وأضافت تقول :

ـ سيلفيو ٠٠ اعط انا كأسا ٠٠ تعالى يا أنا ٠٠ اشربى نخب صحة السنيور سيلفيو ! ٠٠

فترددت الخادمة العجوز ، ثم قالت وهى تبتسم تهكما :

ــ حسنا .. مادام لاجل الصحة .

ووضعت الصحفة فوق الخوان الجانبى وتناولت الكأس ورفعته بحركة مضحكة وشربت النخب ٠

وعادت زوجتى الى اخذ باقى اصناف الطعام بنفس اسلوبها الطبيعى واستأنفت الاكل ومازالت ماضية فى توجيه اسئلتها الى ببساطتها المعهودة عن عملى فقالت :

ــ وهذه المرة هل انت متأكد فعلا انك اتممت عملا جيدا ؟ ٠٠

فأجبت :

ـ نعم ، نعم بقدرما يستطيع الانسان ان يتأكد فى هذه الامور ٠٠ ويسعى ان أكون أكثر تأكدا من كثير من الناس الاخرين ، لاننى انا نفسى لست ناقدا رديئا ٠٠ من هذا على الاقل أنا متأكد تماما ٠

فقالت بعد صمت قصير وقد وضعت يدها على يدى وراحت تتفرس فى وجهى :

ـ انت تعرف اننى مسرورة سرورا لا يقدر ٠٠

فرفعت يدها وقبلتها ٠٠ لقد شعرت بالإمتنان لزوجتى على الطريقة التى رحبت بها بخبر اتمامى لعملى والتى كشفت لى مرة أخرى عن نقاء جوهر المشاعر التى كانت تكنها لى .. لقد أحسست كأننى ثمل بما ابدت من هذه

البهجة وكان تلك الحفاوة قد صدرت عن اقدر النقاد ، لا عن دخيلة جاهلة فى عالم الادب منها .. كان احساسى هذا أقرب الى السذاجة ولكننى أعتقد ان كل الكتاب ، حتى اقدرهم يلابسون هذا الاحساس على الاقل مرة فى تاريخهم ، فى مستهل حياتهم الادبية فى فترة يكونون فيها طلابا يتراوحون بين التردد والامل ملتمسين رأى زملاء اقدم عهدا بالادب واعلى قدرا ·

ثم اكتشفت فى النهاية ان فرط انسجامى فى هذا الجو المبهج الذى استخفتنى فرحته ، قد انسانى اننا فرغنا من طعامنا ونهضنا عن المائدة بل انتقلنا الى غرفة الجلوس ، وان زوجتى كانت واقفة أمامى تصب القهوة ·

ولست اذكر بجلاء تفصيلات ماحدث تلك الليلة كما لا يذكر الانسان وجوه الناس وتعبيراتهم عندما يومض امامهم برق يبهر أبصارهم بوميضة الخاطف .. كل ما اذكره هو اننى كنت منفعلا ، مبتهجا فى حالة من الانتعاش والحيوية بالغة ، واننى رحت اتكلم عن مستقبلى ومستقبلها ··

ثم جعلت اشرح لها كيف كتبت القصة .. لقد أخذت مادتها من موضوع زواجنا وشخصينا نحن الاثنين ، فجعلت احلل المادة التى استمددت منها القصة ، واصفا لها التغييرات والاعماق البعيدة التى ادخلتها عليها ·· واوضحت اننى اقتبست اشياء من الكتب الاخرى المشهورة عاقدا المقارنات متحببا السوابق جاعلا كتابى مرتبطا بالاعمال الاخرى رتباطا تقليديا .. وبين فترة واخرى كنت اتوقف واتحدث فى مسألة فرعية من مسائل الفكر ، او فى الاشارة الى حكاية ·· وفى النهاية تناولت كتابا تضمن مختارات ادبية مشهورة صدر حديثا ، واخذت

اقرأ عليها بصوت مسموع بعض القصائد التى اشتمل عليها لكتاب محدثين ·

كانت زوجتى جالسة على الاريكة ، جميلة رشيقة ، واضعة ساقا على ساق ، وحذاء فضى مرفوع فى قدمها ، وكانت تدخن وتنصت الى ·· وكنت أرى انها ذهبت تتابع كل ما كنت أقوله بنفس المحبة الصادقة صدق الذهب ، التى ابدتها لى فى صورتها التلقائية عندما أخبرتها أننى أتممت قصتى ·· والحق اننا استمتعنا وحدنا فى غرفة الجلوس هذه ذات طراز القرن التاسع عشر ، وبين ذلك الاثاث العتيق المتقادم ، وفى تلك الفيللا المنعزلة فى أعماق الريف ـ أقول اننا استمتعنا ، أو استمتعت أنا على الاقل بساعتين لا نظير لهما فى صفائهما وجمالهما ··

وفى اللحظة التى كنت أطوى فيها كتاب المختارات الادبية ، انطفأ النور فجأة ··

لم يكن من الامور المستغربة فى تلك المنطقة الريفية أن ينقطع التيار الكهربائى ·· كان أوان جنى محصول الزيتون ، وكان التيار يحول الى المعاصر ··

وفى هذه الظلمة يممت شطر الشرفة الكبيرة المطلة على الساحة المكسوة بالحصى أمام الفيللا وفتحت مصراعيها على سعتهما ··

كان الممشى يبدو أبيض فى ضوء القمر ، ومن خلف الاشجار السوداء التى تمتد وراءه كانت السماء المظلمة يلونها البدر المكتمل بلونه الفضى أيضا ·· ووقفت فى الشرفة جامدا أبحث عن القمر ذاته ولكن لم أجده ·· وفجأة ، ما كدت أستدير حتى رأيته يرتفع سريعا من خلف التل الذى قامت البلدة القديمة على قمته ، وبدا أول الامر قوسا ، ثم أخذ تدريجيا يزيد اتساعا واستدارة ، كأنما

تدفعة يد غلابة ، حتى تعلق فى الفضاء بدرا تاما ، كرة صلبية تسبح فى ضياء فضى ، فى سماء باهرة وضاءة ‥ وفى أشعته التى كانت تسقط عمودية على أسوار البلدة الداكنة ، كانت الاسوار تبدو كأطلال ، تكسوها مسحة كالحة من الجمود والوحدة ‥ ولكن كان مشهدها يحكى الخوالى ، عندما أقميت لاغراض الدفاع عن البلدة ‥ والحق اننى نسيت نفسى وأنا أنظر الى هذه المعالم ، والى القمر المعلق من فوقها ‥

وعندئذ من ناحية الغرفة ، انبعث صوت زوجتى التى بقيت فى جلستها على الاريكة ، تقول لى :

ـ الا ترى ان الوقت قد حان للنوم ؟ ‥ لابد أن الوقت قد تأخر بنا .

كانت دعوتها على الارجح أن يذهب كل منا الى غرفة نومه وينام ‥ بيد أنى ترجمتها فى عقلى وأنا بهذه الحال النفسية التخيلية على أنها دعـوة للحب، فاستدرت الى داخل الغرفة ، قائلا :

ـ هناك قمر رائع ‥ لماذا لا نخرج للقيام بجولة صغيرة ؟ ‥

فأطاعت زوجتى دون كلمة ، حتى سررت من قبولها طواعية ‥ وخرجنا معا الى البقعة المكسوة بالحصى أمام الفيلا ‥

كان السكون عميقا كما هو فى ليالى الخريف تلك عندما ترتد حشرات الصيف الى عالم السكون حتى العام التالى ‥ وبدا تمثالا الكلبين المصنوعين من المصيص واللذين كانا يحـدقان الى الفيـلا من طرف السـاحة المكشوفة وهما جزء من هذا السكون ‥

وبدأنا السير فى الممشى تحت الاشجار المقبوة ‥

وعندما صرنا فى أعماق هذه الظلال طوقت خصر ليدا بساعدى ، وشعرت بها تتكىء عليه فى ارتخاء ورشاقة دون أن يكون فى حركتها أثر لاستجابة الحس ، وكأن حركتى كانت متوقعة ، فأعدت لها العدة ٠٠

وأخذنا نتقدم فى المشى متشابكين على هذه الصورة ، بين الصفين المائلين من الاشجار التى كانت جذوعها وأعضاؤها متقطعة هنا وهناك ببريق أبيض مهتز من أثر ضوء القمر فى تسربه من خلال الاغصان المتشابكة ٠٠

وسرنا الممشى كله ، وبعد مسافة قصيرة من البوابة ، انعطفنا فى ممر آخر يحف به صفان من أشجار السرو ٠٠ وفيما وراء أشجار السرو كان الانسان يستطيع أن يلمح مشهدا من السهل الفسيح ،صامتا ،فى ضوء القمر ، وعند رأس الممر ، حيث كان ثمة فضاء فضى اللون ، كانت العين تستشعر امتداد الارض الى الريف المطلق ٠

وكانت زوجتى متكئة على ذراعى ، وكنت أشعر من خلال ثوبها بالاستدارة اللدنة لخصرها ٠٠ وعند نهاية الممر ، أنعطفنا الى درب طويل كان يفصل المنتزه عن الحقول ٠٠ كان المنتزه ينتهى نهاية طبيعية هنا فى الريف الفسيح ٠٠ وكانت الاشجار الاخيرة تمتد أغصانها عبر الدرب الى أوائل الصفوف لمنطقة الكروم ٠٠ وعلى مبعدة قليلة ، وفوق قمة التل ، قامت مبانى المزرعة يغمر واجهاتها الريفية ضوء القمر ٠٠ وكان الدرب الذى ما زال يحف بنهاية المنتزه ، يعرج فيما وراء مبانى المزرعة ، ويطوف بهضبة صغيرة قام عليها جرن وثلاثة أكوام من القش ، ثم يتلاشى بعد ذلك فى امتداد الريف ٠٠

سرت مع زوجتى الهوينا وأشجار المنتزه على جانب،

وعن الجانب الاخر سطح التل المنحدر المعشوشب ٠٠ ومررنا بمبانى المزرعة حتى بلغنا نقطة أسفل من الجرن ٠ ولم البث أن رفعت عينى نحو أكوام القش الثلاثة ٠٠ كان أحدهما كاملا ، من قش حديث أصفر زاهى اللون ، والثانى بنى اللون ، أقدم عمرا ، ومن الكوم الثالث بقى شطر فقط ، قام على هيئة دفة وراء العمود الملتوى الذى كان يسنده ٠٠ وكان ضوء القمر يسقط على الاكوام الثلاثة فيبرز أشكالها واضحة فى لوحة الريف المظلم والخاوى معزولة بكيانها فوق الهضبة الصغيرة ٠٠ والحق أن أسلوب وضع هذه الاكوام الثلاثة الذى لم يكن فيما يظهر من قبيل المصادفة ، وطابعها الذى كان يجعل مشهدها وهى كذلك أقرب الى الاثار ، جعل الانسان ينسى طبيعتها الحقيقية ، وكان يوحى بوجودفكرة مقصودة مدبرة ٠٠ اننى لم أتمالك وقتها أن فكرت فى الدوائر الحجرية الضخمة العمودية التى تركها كهنة قدماء الانجليز فى سهول فرنسا وانجلترا ٠٠ وقد قلت لزوجتى أن مشهد الاكوام الثلاثة القائمة هناك فى ضوء البدر الساطع جعلنى أتذكر أضرحة مقاطعة بريتانى الفرنسية ، واستطردت أشرح لها جانبا من الطقوس الوثنية التى كانت تقام شعائرها فى تلك المعابد التى شهدها عصر ما قبل التاريخ ٠٠ ذلك أن فكرة خطرت لى ، أو بالاحرى رغبة ، فى أن أرتقى الى الجرن فوق الهضبة مع ليدا ، وأطارحها الحب فى هذا المكان ، أرضا ، فوق القش ، تحت ضوء القمر ٠٠ بهذا الاسلوب يمكن أن احتفل بانتهاء عملى الادبى طبقا لتقاليد ماضية وفى أرض ممجدة ، وفى نفس الوقت يكون هذا أيذانا باستئناف حياتنا الزوجية ٠٠ ولن أقول أن ذكريات أدبية

معينة لم تدخل فى هذه الرغبة ، ولكننى بعد كل شىء ، أديب من رجال القلم، ومن الحق أن الادب، فى شخصى ، ينبغى أن ينصهر فى بوتقة المشاعر العميقة والحوافز الطبيعية ..

وعلى أى حال فقد كان يساورنى الشوق الى ليدا ، وأن فكرة مطارحتها الحب فى الهواء الطلق ، وفى ليلة قمرها بدر ، بدت لى طبيعية الى أقصى حد ، مثلما تبدو هذه الفكرة لاى رجل عادى أبسط منى وأقل ثقافة ..

الفصل الحادى عشر

قلت لزوجتى اننى أريد أن أرتقى الى الجرن وأنظر الى المشهد الفسيح الذى يمكن مشاهدته من هــذا المكان ‥ فوافقت ، وارتقينا السفح المنحدر وأيــدينا متشابكة ، فوق الحشائش اللزجة ‥ وعندما وصلنا الى الجرن وقفنا ساكنين برهة نحدق فى المشهد ‥

كان السهل الرحيب يمتد الى مدى النظر فى الليل المنير ، وكان ضوء القمر الذى يغمر ذلك المنبسط الشاسع من المزروعات ، يجلى لاعيننا صفوف أشجار الفاكهة ، والاسوار النباتية ، والحقول الغائرة بينها ، وأشجار الكروم ‥ وهنا وهناك كان القمر يركز بهاءه على واجهة بيت من مبانى المزرعة ، فيغمرها بذوب الفضة ‥ وعند الافق ، كان صف من التلال السوداء يقيم خطا واضحا بين الارض والسماء الصافية ‥ وعلى مبعدة كنا نسمع دمدمة نائية وكأنها صادرة عن قطار يجرى محتجبا عن أعيننا بين الحقول المزروعة ، شاقا طريقه فى غمار الريف الهاجع ، مؤكدا طابع الامتداد الشاسع والسكون الشامل فى هاتيك الارجاء ٠

ان زوجتى راحت تحدق فى هذا المشهد الجليل بصورة

أقرب الى الحيرة ، وكأنما وددت أن تنفذ الى سر صفائها وسكونها ‥ اما أنا فقد طوقت خصرها بذراعى مرة أخرى وأخذت أحدثها بصوت خافت ، مشيرا الى هذا الموضع أو ذاك فى أرجاء السهل من تحتنا ، ومنوها بجمال الليل وسحره ‥ وفى أثناء حديثنا جعلتها تستدير الى ناحية السهل القائم من خلفنا، وأشرت لها الى أسوار البلدة القائمة فوق قمة ‥ ومررنا ونحن نتحدث قرب أحد أكوام القش ‥ فرأينا الارض قد تناثر فيها القش من اثر لعب أطفال الفلاحين فى نهارهم المولى ‥ وفجأة وجدتنى أعانق زوجتى وأغمغم فى سمعها قائلاً :

ـ ليدا ! ‥ أليس الافضل هنا ، لا فى غرفتك ؟ ‥

قلت هذا وأنا أحاول أن أدفعها برفق الى الارض ‥

فنظرت الى وقد اتسعت عيناها اللامعتان الزرقاوان باغراء مفاجىء ‥ ثم لم تلبث أن قاومتنى قائلة :

ـ لا ‥ القش غير نظيف ‥ ثم انه شائك ‥ ان هذا يتلف فستانى ‥

ـ وهل يهم فستانك ؟ ‥

فقالت بضحكة مفاجئة مليئة بالدلال :

ـ ان عملك لم يتم بعد ‥ فى اليوم الذى تتمه نهائيا ، سوف نعود الى هنا ،ليلا ‥أهذامناسب ؟ ‥

ـ لا ‥ غير مناسب ‥ لن يكون وقتها قمر ‥ ليكن الليلة ‥

فقالت برقة ، وكأنما لم تزل مترددة :

ـ دعنى أذهب يا سيلفيو ‥

وفجأة تملصت منى وجعلت تركض الى سفح التل وهى تضحك ‥ كانت ضحكة عذبة صبيانية ، مليئة بالانفعال

والمحبة ، مازال بها أثر من الاغراء الذى توسمته فى عينيها منذ لحظة ‥ لقد بدا انى وجدت فى هذا تعويضا عن الاسلوب الذى صدتنى به . لقد خطر لى وانا أجرى وراءها انه ربما كان من الافضل انها فعلت هذا ـ رفض رقيق ، وضحكة مغرية ‥

كانت تجرى أمامى على امتداد الممر القائم بين المنتزه والكروم ‥ لكننى لحقت بها بسهولة واخذتها بين ذراعى ‥ لقد شعرت أن ضحكتها تلك قد أشبعت كل رغبة عندى ‥ وبعد أن قبلتها أخذت أسير الى جانبها ـ ممسكا بيدها ‥ وكان القمر يلقى خيالينا أمامنا ، منفصلين ولكن متشابكى الايدى ‥

لقد بدت لى هذه العودة الموسومة بالعفة أصدق حبا من تلك العناقة التى تملصت ليدا منها فى الجرن ‥ وتابعنا سيرنا الى الممشى حتى وصلنا الى واجهة الفيللا ‥ فوجدنا أن الضوء الكهربائى عاد ، وشرفة غرفة الجلوس تبدو باهرة وكأنها ترحب بعودتنا ‥ فدخلنا المنزل وصعدنا السلم انها صعدت أمامى ، ولم أرها تبدو اكثر جمالا كما رايتها فى حركة صعودها الوانية الرشيقة ، التى كشفت عن مفاتن بدنها ‥

وفى الردهة قالت مرة أخرى بلهجة المداعبة والاغراء فى نفس الوقت :

ـ أتمم عملك اذن ‥ وعندئذ سوف نذهب معا الى الجرن ! ‥

فقبلت يدها ، وذهبت الى غرفتى ‥

ولم تمض فترة حتى كنت مستغرقا فى النوم ‥

وفى الصباح اليوم التالى لم تفتر حدة نشاطى ولم تنثلم

حيويتى ، بل انهما بلغا الذروة·· وكانت زوجتى مازالت نائمة عندما ركبت عربة انجلو المزارع وقصدتمعه الى البلدة ·· ولعل انجلو قد رأى من واجبه ان يحدثنى عن مجريات الامور فى المنطقة فتركته يثرثر ويغلو دون أن انصت اليه انهماكا منى فى خواطرى واستغراقا فى مشاعرى ·

واتجهت المركبة فى الممشى حيث هبطت اشعة الشمس الاولى فى هذا الصباح ، ودارت حول السور القديم ثم انعطفت منه الى الطريق الرئيسى ·· وكان الهـواء معتدلا ، وانعقد بهاء الخريف الرقيق فوق كل شىء ·· وسرحت بصرى فى ارجاء الريف الذى تحيفت عليه المدينة وبدا عليه الاعياء ، فكان كل ما حولى فى ذلك الضياء الهادىء مختلفا تماما عما عهدته فى وهج شمس الصيف المتقدة ، وبدا كل شىء واضحا محددا حتىأدقمعالمه وأخفى الوانه ·· أنى لم أشبع من تقليب النظر · فهنا ورقة حمراء لفحها الهواء ، فنزعت عن غصن كرمة وتهاوت ·· وهناك شبكة متغيرة من الضـوء والظل الخفيف تعلو جدارا عتيقا مخضرا داكنا ··وعلىمبعدة رفت فى الهواء قنبرة ارتفعت من الارض بوقع حوافر الحصان ثم استقرت على حرث فى حقل لازرع به ، والتربة المحروثة حديثا مازال يعلوها أثر المحراث ·· وكانت جدران مبانى المزرعة تكسوها رقاع نباتية مزرقة كسم ، وكأنها صدأ النحاس ·· وكانت الطحالب المصفرة كالذهب تكسو قرميد سقف كنيسة صغيرة بدت كأنها مخزن غلال ·· ومن اغصان شجرة بلوط فتية تدلت فوق الطريق من الحقل المجاور ، كانت ثمار جوز البلوط تبدو كبيرة شاحبة الخضرة ·

والحق اننى ابتهجت برؤية هذه التفصيلات الدقيقة امثالها ، وكأنها كانت دسمة غنية بمعان تفوق الوصف ·· وقد أدركت أننى مدين بهذه النظرة الجديدة للاشياء وكأننى كنت عاشقا لها ، الى السعادة التى كنت اشعر بها ، والتى كانت كذلك جديدة تجل عن الوصف ··

وبعد اجتيازنا للسهل المسطح، اخذ الطريق يمتد الى سفح الجبل ، صاعدا برفق ولكن متصل الصعود ، حتى كان على المركبة ان تتقدم كمن يمشى على رجليه ·· وعندئذ نظرت لاول مرة الى الاسوار القديمة القائمة رأسيا فوق قمة التل ، داكنة ولكن حوافيها تتوهج فى اشعة الشمس ·· واذا بى فجأة اشعر بنشوة غلابة تغمرنى ، وكان هذه الاسوار كانت هدفا تجلى لى آخر الامر ، لا هدف رحلتى الصباحية القصيرة ، بل رحلة العمر كله ··

كانت المركبة ترتقى وئيدا ، ورايت نفسى برهة وأنا اتطلع الى الاسوار ، لاكما أنا ، كتلة من المشاعر المختلطة والعابرة ، ولكن رأيتنى مستقرا فى أعماق الزمن ، متشحا بذلك الرداء السرمدى الذى يخلعه التاريخ فى بساطة وخفاء معا على ابطاله ·· ان اولئك الابطال العظام الذين كانوا يستأثرون منى بالاعجاب ، اولئك الرجال المغنون للبشرية والمسعدون لها ، قد ساروا مثلى فى هذا الطريق فى صباح مثل هذا الصباح ، وتحت نفس هذه الشمس ·· وبهذا الاحساس الوثيق ، بدا لى اننى وجدت ما يؤكد لى أنى سأصبح ذات يوم واحدا من أولئك الرجال ·· لقد بدا لى أن أكتمه هذا وأتنبأ به فى غمرة

مشاعر هذه اللحظة وأنا اعيشها ٠٠ لقد لاحت لى وكأنها اجلى علامة على دخولى مجال العظمـــة واندراجى فى الخلـود ٠٠ ثم أدهشنى أن الفيت نفسى اغمغم هـذه الكلمات ، السابع والعشرون من أكتـوبر عام الف وتسعمائة وسبع وثلاثين ٠ ارددها مثنى وثلاث بين الصدى الرتيب لوقع حوافز الجواد الدائبة اللاغبة وهى ترتقى التل ، وقد خامرنى لحظتها احساس غريب بأن التأثير السحرى لهذا التاريخ الذى كنت افوه بمقاطعة واضحة جلة كان يضم بين اطوائه نذير سوء يتربص بى ٠٠

وأفضى بنا السير البطىء فى النهاية الى بوابة البلدة : وكانت تتألف من كتلتين ضخمتين من البناء يعلوهما عقد غير سميك على نمط القرون الوسطى ، وكانت البوابة تبدو زاهية فى أشعة الشمس الذهبية ، والفلاحون يمرون من تحتها أمامنا على متون حميرهم او حاملين السلال ٠٠ ولم يكن هذا الصباح بالنسبة اليهم الا كصباح كل يوم على قمة هذا التل ، كقمة أى تل آخر فى أى مكان ٠

وبعد اجتيازنا للبوابة شعرت بانتعاشى يفتر فجأة عندما أخذت المركبة تسير فوق بلاط شارع منحدر بين صفين من البيوت القديمة ٠٠ ولم البث ان ترجلت عند وصولنا الى الميدان الرئيسى وطلبت الى انجلو ان يقابلنى فى هذا المكان بعد ساعة ثم ذهبت للبحث عن ورق الآلة الكاتبة الذى احتاج اليه ٠٠

كانت المكتبة التى اريدها قائمة وراء الميدان ولم اجد صعوبة فى الاستدلال عليها ولكننى دهشت اذ لم اجد بها ورقا للالة الكاتبة ، بل كان بها ورق عادى ٠٠ فاستسلمت مستاء وأشتريت مائة من الفروخ المزدوجة ، مقدرا أن

اجعل من كل فرخ صفحتين ..

وتأبطت لفافة الورق وقصدت الى المقهى الرئيسى وتناولت شرابا وانا واقف لدى البار .. وكان المقهى عتيق الطراز قاتما تربا ، وبه زجاجات شراب قليلة مشبوهة المظهر فوق الرفوف خلف البار ،وليس فى المقهى رواد على الارائك الحمراء المصفوفة حول الجدران .

وتركت المقهى وعدت الى الميدان ، فيممت شطر كشك الصحف وبعد ان تفحصت طويلا المجلات المصورة الاربع او الخمس والصحف الهزلية المعلقة اشتريت جريدة الصباح وجلست على المقعد الحجرى أمام دار البلدية تحت شعارات النبالة الملفوفة للاسر النبيلة البائدة . وتحت الحلقات الحديدية المعدة لربط الخيول .. لقد تملكنى الاسف الان لاننى طلبت الى انجلو ان يعود بعد ساعة ولكنى هونت على نفسى بعد أن فكرت أنه لابدلديه أعمال يؤديها وأنه لابد لى من انتظاره على أى حال ..

كان الميدان غير المنتظم ضيقا تحف به قصور من العصور الوسطى نصفها فى أشعة الشمس ، ونصفها الآخر فى الظل ، وكان خلوا من الناس فى هذه الساعةاذ لم يكن اليوم هو موعد السوق ، وفى خلال الساعة وزيادة التى أمضيتها هناك لا أذكر أنى شاهدت أكثر من عشرة اشخاص يمرون نصفهم من القسس .

وقرأت الجريدة من أولها الى آخرها ، ولم اقلق بحال لطول الانتظار ، اذ كان عملى قد تم على الوجه المرضى ، ولم يكن محتملا على اى حال أن ابدأ النسخ على الالة الكاتبة هذا الصباح .

كنت اشعر بهدوء وسكينة لا حد لهما ، ولما فرغت من قراءة الجريدة ذهبت أراقب أرباب الحرف العديدين وهم

يؤدون اعمالهم فى الحوانيت القائمة حول الميدان ··
وفى خلال ذلك كانت الشمس ترتقى الى كبد السماء وأخذ ظل قاعة البلدية المنتشر يتناقص كلما تراجع فوق البلاط ·· ومن مكان ما اخذ جرس يقرع بعنف ولعله جرس دير ، وفى الحال اعقبه قرع الجرس فى برج الكنيسة الرئيسية ·· وكان ذلك ايذانا بانتصاف النهار بدا لى اننى ساجد فيه انجلو. .وفعلا وجدته منهمكا فى الميدان ·· وقمت أنا ايضا من مكانى واجتزت الميدان على مهل الى مكان الحدائق العامة ، وهى ملتقى مشمس بدا لى أننى ساجد فيه انجلو .. وفعلا وجدته منهمكا فى حوار مع بعض الاهلين ·· وفى الحال بدأنا فى رحلة العودة ·

وفى الطريق ما لبثت خواطرى ربما بسبب تعبى أن اتخذت صورة أخرى اكثر منطقا ··فقد بدأت افكر فى الناشر الذى ينبغى أن أختاره لنشر كتابى ، وفى التجليد الذى أفضله،وفى النقاد الذين سوف يكتبون عنه ، منهم من يحبونه ومنهم من لا يحبونه ·· ثم انتقلت من هذا الى التفكير فى ليدا ، فقلت لنفسى اننى كنت سعيدا جدا بالاهتداء اليها · وتجلى فى ذهنى لاول مرة منذ زواجنا مدى هشاشة العلاقة التى تربط بيننا ·· لقد تملكنى او كاد الفزع عندما فكرت فى أن حياتى كلها تعتمد على شعورها نحوى ، وحياتها تعتمد على شعورى نحوها ، شىء يمكن ان يتغير ، ويمكن ان افقدها ·· ان روحى تملكها الاضطراب لدى هذه الفكرة ، الى حد الالم والعذاب ··· وعندما شعرت بانفاسى تضعف وقلبى يرتعد ، فهمت الان الى اى مدى اصبحت مرتبطا بليدا وكيف انى لا استطيع ان احيا بدونها ·· لقد خطر لى

احيانا اننى بامتلاكها كنت غنيا الى حد استطيع معه ان استغنى عنها ٠٠ لكننى ماكدت اتصور فكرة الانفصال عنها حتى الفيتنى أتعس الناس وأوحدهم على ظهر الارض ٠٠ وهذا الانفصال قد يقع يوما ما ٠٠ واذا الغم ينتابنى فجأة وقشعريرة تسرى فى كيانى ، حتى ارتعدت من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، رغم حرارة الشمس٠٠ لقد امتلات عيناى بالدمع ،وشعرت بأننى اميل الى الشحوب٠٠وفى صوت هستيرى صرخت مستحثا أنجلو على الاسراع ، وهتفت أقول بلهجة الغضب :

ـ رحماك ياربى ! ٠٠ اننا لن نصل قبل المساء ، بهذه السرعة ! ٠٠

ومن حسن الحظ اننا وصلنا الان الى منطقة الارض المسطحه ، ولما شعر الجواد أن اصطبله قريب أخذ يركض ركضا ٠٠ وجعلت اراقب الطريق بقلق متلهفا للوصول الى بيتى بأسرع ما يمكن حتى أرى ليدا واجدها كما تركتها ٠٠ هاهنا المرحلة الاولى من الطريق عبر الريف المكشوف ثم الثانية فيما بعد القنطرة ٠٠ وها هنا فى النهاية المرحلة الاخيرة من الطريق على امتداد السور الذى يحف بالمنتزه ٠٠ ثم ها هنا البوابة والممشى ٠٠أن البقعة المكشوفة امام الفيلا كانت مليئة باشعة الشمس وفى مدخل الشرفة الكبيرة رأيت ليدا ، وكأنما كانت تنتظرنى فى هذا المكان مدى سنوات وهو مشهد لم تكد تصدقه عيناى بعد ما أنتابنى من الرعب منذ قليل ، وكانت ترتدى فستانا فاتح اللون ، وبيدها كتاب ٠

لقد لاحظت مع الاغتباط من مسافة بعيدة صورة الترقب التى طالعتنى منها ومن الحلى أنها جلست تقرأ

فى غرفة الجلوس تاركة الشرفة مفتوحة وعندما سمعت صوت عجلات المركبة فوق الحصى خرجت فى الحال للقــائى ··

ثم وقفت المركبة اخيرا ·· فوثبت منها · وبعد ان حييتها دخلت الى المنزل

قالت لى وهى تتبعنى :

ـ انك تأخرت ·· الحلاق هنا منذ وقت طويل ·· انه ينتظرك فوق ··

فقلت لها :

ـ كم الساعة الان ؟ ··

ـ بعد الواحدة ··

فقلت لها :

ـ انها غلطة انجلو ·· اننى ذاهب حالا للحلاقة وسأعود مباشرة ··

فلم تقل شيئا ، وخرجت الى الحديقة ·

أما انا فقد ارتقيت السلم مسرعا ، كل أربع درجات مرة واحدة ، ودخلت غرفة مكتبى · كان انطونيو واقفا ينتظرنى قرب الخوان الذى وضعت فوقه الامواس ·· وقد رحب بى بتحية الصباح وبايماءة خفيفةمنرأسه · فقلت له بسرعةجنونية :

ـ اسرع ياانطونيو ! ·· تأخرنا جدا ! ·· اسرع بكل ما يمكنك ! ·

والقيت بنفسى فى المقعد ذى المسندين ·

لم البث أن أدركت أن استعجالى كان سببه شـعورى بالجوع الشديد ·· فانى لم أتناول فى الصباح الباكر سوى فنجان قهوة ، وكنت أشعر بخواء فى معدتى ودوار

فى راسى ، وجاء الجوع معه بلون من الاستياء ما لبث أن تجنى أثره عندما بدأ انطونيو ببطئه المعتاد يبسط الفوطة لكى يضعها حول عنقى ، حتى قلت لنفسى : « لماذا لا يسرع ؟ قلت له اننى مستعجل ! ٠٠ اخذه عفريت ٠٠ ! !

ان هدوء حركات انطونيو الذى كان يطيب لى من قبل، ما لبث أن استحال الان الى شىء كريه ٠٠ وكان يمكن أن أطلب منه أن يستعجل ، ولكن ما دمت قد فعلت هذا من قبل فقد رأيت أننى لا استطيع التكرار ، مما زاد سخطى فى نفس الوقت ٠٠ وعندما استدار بظهره الى ناحيتى وأخذ يدير الفرشاة فى وعاء الصابون الخشبى ، رحت اتابع حركاته بعين نفذ صبرها وأنا أعد الثوانى ٠٠ أن استعجالى وجوعى تضاعفا فى وقت واحد ٠٠٠

وعندما اتم انطونيو اعداد رغوة الصابون رفع الفرشاة فى الهواء والتفت الى وأخذ يكسو وجهى بالرغوة ٠٠ لم يكن يضارعه أحد فى فن تغطية وجه الزبون بطبقة ضخمة كثيفة من الرغوة البيضاء ٠٠ ولكن براعته هذه اثارتنى اليوم ٠٠وفى كل مرة كانت الفرشاة تطوف بوجهى كنت أحسها الاخيرة ، لكنى كنت مخطئا دائما ٠٠ فانه لا يكاد يرى رغوة واحدة توشك أن تسقط حتى يمسكها بطرف الفرشاة ، ويبدأ الدورة من جديد ، بنفس الحركة المنتظمة الابدية ، كاسيا وجهى بالرغوة ! ٠٠ ولست أدرى سببا للشعور الذى تملكنى، ولكن فكرة الاستلقاء فى هذا المقعد ذى المسندين ، والرغوة تكسو وجهى ، جعلتنى أشعر بالسخف ، بل اسوأ من هذا ، بدا لى وكأن انطونيو يسعى عن عمد لكى أبدو بهذه الصورة السخيفة ٠٠٠

كان هذا الظن مضحكا ، ولم ألبث أن نبذته على الفور

·· ولكنه يبين كيف ادى الجوع الى مضايقتى ··
واخيرا ، عندما رأيت حركة الفرشاة على وجنتى ابدية لا تنتهى ، لم اتمالك ان هتفت غاضبا :

ـ قلت لك ان تسرع ! ·· واراك تواصل وضع الرغوة على وجهى بغير انقطاع ! ··

فرأيت انطونيو يرمينى بنظرة عجلى من عينيه المستديرتين اللامعتين اللتين بدت فيهما الدهشة ، ثم ما لبث ـ دون كلمة ـ أن وضع الفرشاة فى الاناء وأخذ الموسى ···

ولكن ، قبل أن يستدير بالفرشاة ، وبعد أن تكلمت،لم يستطع أن يقاوم اغراء لمسة أخيرة للرغوة على خدى الايمن ·· والواقع اننى حملت هذه البادرة منه على محمل العصيان ، الذى عددته من قبيل القحة ، مما ضاعف استيائى ···

واستغرق لحظة فى (تجليخ الموسى) ،ثم انحنى فوقى وبدأ يحلق ·· وبخفته وبراعته المألوفتين أزال الجزء الاكبر من الرغوة عن خدى الايمن ، ثم بسط نفسه الى الامام لكى يأخذ فى رفع الرغوة عن الخد الايسر ···

وفى حركته هذه ضغط بجسده على ذراعى ·· ولاول مرة منذ أن كان يحلق لى شعرت بهذا الضغط ·· ولم اتمالك أن تذكرت اتهامات ليدا ·· لم يبق هنالك أدنى شك ·· فانه وهو ينحنى فوقى ضغط بجسده على ذراعى وكتفى ، وشعرت أنا لدى هذا الاحتكاك بنفور شديد ··

كنت أشعر برخاوة الجزء الاسفل من بطنه ·· وفى الحال ، من خلال النفور الذى تملكنى ، مشوبا بالاشمئزاز ، بدا لى انى أفهم نفور زوجتى ·· وكان أشد ما بعث النفور والاشمئزاز هو أن هذا الاحتكاك كان يثير الارتياب بأنه تم عن عمد ···

انتظرت لحظة وانا أؤمل أن يتحرك ‥ لكنه لم يفعل ، ولا كان مستطيعا هذا فى الواقع ‥ وفجأة تغلب اشمئزازى على حكمتى ، فابتعدت الى الخلف بحركة سريعة ‥ وفى نفس اللحظة شعرت بحد الموسى وهو يقطع خدى ...

وفى الحال استحوذ على ، من حيث لا ادرى ، سخط وكراهية لانطونيو ‥ أنه سحب الموسى وجعل ينظر الى بدهشة ‥ فوثبت على قدمى ورفعت يدى الى خدى الذى بدأ الدم ينزف منه ، وصحت قائلا :

ـ ماذا تفعل بحق الشيطان ؟ ‥ هل جننت ؟‥

فقال :

ـ لكن يا سنيور بالديتشى ‥ انك تحركت ! ‥ وثبت بعنف ! ‥

فصرخت قائلا :

ـ لكن هذا غير صحيح ! ‥

فراح يقول بلهجة اقرب الى التوسل ، صدرت من رجل معدود من السوقة :

ـ سنيور بالديتشى ‥ كيف كنت أجرحك اذا لم تتحرك ؟ ‥ صدقنى ، أنك تحركت ‥ لكنه ليس شيئا كبيرا ‥ انتظر لحظة ‥

وذهب الى الخوان ، ورفع سدادة زجاجة صغيرة ، وجاء من لفافة بقطعة قطن وغمسها فى الكحول ...

ففاض بى الغضب ، حتى صرخت فيه :

ـ ماذا تعنى بانه ليس شيئا كبيرا ؟ ‥ هو جرح خطير ! ‥

وانتزعت قطعة القطن من يده وذهبت الى المرآة ‥ والهبنى الكحول فكان بمثابة الزيت الذى يصب على

النار ، حتى صرخت فيه مرة أخرى من شدة الغضب وانا اقذف بقطعة القطن الملوثة بالدم :

ـ وبعد هذا تقول انه ليس شيئا كبيرا ! ·· انت لا تعرف معنى كلامك يا انطونيو ·· والان أسمع ! ·· خير لك ان تنصرف ! ·

ـ لكن يا سنيور بالديتشى ·· انا لم انته من الحلاقة لك ! ··

فهتفت به قائلا :

ـ هذا لا يهم ·· انصرف ولا ترنى وجهك مرة ثانية ! ·· لا أريد رؤيتك هنا مرة ثانية ! ·· هل فهمت ؟ ··

ـ لكن يا سنيور بالديتشى ···

ـ كفى ! ·· انصرف ولا تدعنى اراك مرة ثانية ·· ولا مرة ! ·· أخرج ! ·· هل فهمت ؟ ·

ـ هل آتى غدا ؟ ··

لا ·· لا غدا ولا أى يوم غيره! ··هذا يكفى ! ··

وكنت اذ ذاك واقفا وسط الغرفة أصرخ وما زالت الفوطة مربوطة حول عنقى ·· ولم البث أن رأيته ينحنى انحناءة يسيرة ـ واكاد أقول انها انحناءة سخرية ـ ويغمغم قائلا :

ـ كما تحب ···

ثم اتجه الى الباب واختفى عن نظرى ···

ولما صرت وحدى زال عنى الغضب تدريجيا ·· فرفعت الفوطة ومسحت بقية الرغوة من وجهى ونظرت الى نفسى فى المرآة ··ان الجرح أصابنى به انطونيو فى لحظة كاد يفرغ فيها من حلاقة ذقنى ، وهكذا كان وجهى ناعما تقريبا ، فيما الجرح الاحمر الطويل المتخلف ·· فغمزت قطعة أخرى من القطن بالكحول وطهرت الجرح جيدا ··

وفى هذه الاثناء كنت أفكر فى الدافع الغريب الذى دفعنى الى طرد انطونيو ، فادركت أن الجرح لم يكن الا مجرد تعلة ٠٠ اننى فى الحق كنت اريد طول الوقت أن اطرده ، ولما سنحت أول فرصة ، فعلت هذا ٠٠ لكن لم يفتنى اننى لم اطرده الا بعد أن أصبح طرده لا يضرنى فى شىء ، أو بالاحرى بعد أن اتممت كتابة قصتى ٠٠٠

والنتيجة انه لم يكن بوسعى أن أصور طرد الحلاق امام ليدا بانه تم تقديرا لرغباتها ٠٠ فانا أعلم اننى ابقيت انطونيو برغم اتهاماتها ، لاسباب أنانية ، والآن تخلصت منه لاسباب انانية مماثلة ٠٠ وعند هذا الخاطر ساورنى شعور وخز الضمير ، ولاول مرة بدأت ادرك اننى دون وعى بما فعلت لم أحسن التصرف حيال زوجتى ٠٠٠

وارتديت ملابسى ، ولما فرغت نزلت الى الطابق الارضى ٠٠٠

كانت ليدا قد سبقتنى الى غرفة الطعام وجلست الى المائدة ٠٠ وقد اكلنا فى صمت بعض الوقت ، ثم قلت لها :

ـ هل تعرفين اننى طردت انطونيو ؟ ٠٠ طردته فعلا ، ونهائيا ٠٠

فقالت دون أن ترفع نظرها عن الطبق :

ـ وماذا ستفعل بخصوص الحلاقة؟ ٠٠

فأجبت قائلا :

ـ سأحاول أن أحلق بيدى ٠٠ على أى حال فان هذا لن يكون الا لايام معدودة ، لاننا سنذهب من هنا ، أليس كذلك ؟ ٠٠ لا أعرف ماذا جرى له اليوم ، لانه اصابنى بجرح بطول أصبعى ٠٠ انظرى ! ٠٠

فرفعت عينيها وتفحصت الجرح ، ولم تلبث أن قالت باشفاق :

ـ هل طهرت الجرح ؟ ..

ـ نعم .. ولابد أن أقول لك ان الجرح لم يكن الا مجرد تعلل .. الحقيقة اننى لم استطع أن أطيق انطونيو أكثر من هذا .. انك كنت على حق ...

ـ ما قصدك بهذا الكلام ؟ ..

وجدت اننى لا استطيع ذكر المعلومات التى استقيتها من أنجلو القروى دون تغيير الموعد الذى تلقيتها فيه ، وهكذا لجأت الى الكذب ، قائلا :

ـ اننى تكلمت صباح اليوم مع انجلو عن انطونيو .. فاكتشفت أنه فاسق لا ضابط له .. والظاهر أنهمعروف جيدا بهذا الوصف فى المنطقة كلها .. انه يضايق كل النساء .. وهكذا رأيت انك ربما كنت على حق ، وان لم يكن هناك دليل فى مسألتك على انه تصرف عن عمد .. وقد انتهزت فرصة الجرح للتخلص منه ...

لم تقل شيئا .. فاستطردت أقول :

ـ هذا غريب فى الواقع .. لا يمكن أن تظنى .. الحقيقة اننى لا أعرف ماذا يجد النساء فيه ـ أصلع ، أصفر الوجه ، قصير ، سمين ! .. انه ليس نموذجا لادونيس ، اله الجمال ! ..

فقالت :

ـ هل وجدت الورق فى البلدة ؟ ..

ـ لم أجد المطلوب بالضبط .. ولكنى وجدت نوعا آخر .. هو يفى بالغرض على أى حال ...

بدا لى أن موضوع الحديث عن انطونيو يضايقها ، وهكذا غيرت الموضوع مثلما فعلت ، واستطردت أقول :

ـ اننى سأبدأ النسخ على الالة الكاتبة اليوم ٠٠ سأفعل هذا فى فترات بعد الظهر والمساء أيضا ٠٠ وبهذه الكيفية يمكن اتمام النسخ اسرع ٠٠٠

استمرت فى صمتها ، ومضت تأكل بسكينة وهدوء ٠٠ فحدثتها قليلا عن كتابى وعن مشروعاتى ، ثم قلت :

ـ اننى سأهدى هذا الكتاب اليك ، لانه بدون حبك ما كنت أستطيع اتمامه ٠٠٠

وامسكت بيدها ٠٠ فرفعت عينيها وابتسمت لى ٠٠ وفى هذه المرة ،فان بادرة المجاراة التى بدا لى اننى كنت ألمحها بين وقت وآخر فى مسلكها نحوى ، كانت ظاهرة جلية ، الى حد ان الاعمى يمكنه أن يفطن اليها ٠٠ ان هذا عقد لسانى ، وشعرت وانا ممسك بيدها بحماستى تفتر بل تتجمد ٠٠ انها كانت تبتسم لى كما تبتسم الام لطفل صغير يجرى فى لحظة لا تريد فيها أن يلح عليها ويضايقها ، فيقول متلاحق الانفاس : « ماما ! ٠٠ عندما أكبر أريد أن أكون جنرالا » ٠٠

وعندئذ سمعت ليدا تقول لى :

ـ وماذا سيكون الاهداء ؟ ٠٠

وفى الحق اننى عقليا ترجمت السؤال بهذه العبارة : « وأى فرع من فروع الجيش تختاره ؟ » ٠

أجبت على سؤال ليدا بشىء اقرب الى الارتباك ، قائلا :

ـ آه ٠٠ كلام بسيط جدا ٠٠ مثل : (الى ليدا) ٠٠ او : (الى زوجتى) ٠٠٠

لماذا ؟ ٠٠ هل تريدين الاهداء بجملة مطولة ؟ ٠٠

ـ آه ٠٠ لا ٠ لم يكن فى قصدى أى شىء ٠٠

من المحقق أن اهتمامها كان منصرفا الى مكان

آخر .. وهكذا سحبت يدي ولزمت الصمت منشغلا ، محدقا من النافذة الى الاشجار فى الخارج ..

كنت أرى أن واحدا منا لابد له أن يقطع حبل الصمت .. لكن لم يحدث شيء .. ان صمتها بدا قاطعا ، باتا .. وقد بدا عليها أنها معتصمة مستحكمة فى دائرة خواطرها ، وليست راغبة ، باى حال ، فى الخروج من هذه الدائرة ..

ولكى أدارى خيبة أملى ، فانى حاولت المزاح ، فقلت :

ـ هل تعرفين نوع الاهداء الذى كتبه أحد المؤلفين الى زوجته ذات مرة ؟ .. كتب لها هذه الجملة : (الى زوجتى ، التى بدون غيابها ما كان هذا الكتاب ليتم تاليفه أبدا) ..

فأبدت ابتسامة فاترة ، فأسرعت أقول :

ـ لكن بالطبع أن حالتنا على العكس من هذا تماما .. اننى ما كنت أستطيع تاليف هذا الكتاب بدون (وجودك) ..

فى هذه المرة لم تبتسم .. فلم أستطع ان أتمالك نفسى أكثر من هذا ، وقلت :

ـ لا بأس .. اذا كنت لا تريدين ، فلا لزوم لاى اهداء على الاطلاق ..

ولابد أن رنة المرارة شابت لهجتى ، فقد بدا أنها تمالكت نفسها بجهد ، وتناولت يدى قائلة :

ـ آه يا سيلفيو .. كيف يمكن أن تتصور اننى لا أريد هذا ؟ ..

ولكن مرة أخرى كانت بادرة المجاراة واضحة كل الوضوح .. كانت كما يحدث مع الام عندما يشعر الطفل

بخيبة أمل ، اذ يقول لها ، « على أى حال يا ماما اذا كنت لا تحبين أن اكون جنرالا ، فلن أكون جنرالا » ‥ فتجيب الام قـائلة « آه ‥ لكننى اريد فعــــلا أن تكون جنرالا ‥ وأريد أن تكسب معارك كثيرة » ‥

رأيت أن هذا الحديث لا جدوى منه ، وشعرت بنفس الاستياء الذى تملكنى أزاء انطونيو والذى عزوته وقتها الى الجوع ‥ فانتفضت قائما وانا اقول :

ـ اظن ان انا أعدت القهوة فى الخارج ‥



الفصل الثاني عشر

بعد أن تركتني زوجتي للراحة ، صعدت الى غرفة مكتبتي لكي ابدأ نسخ القصة على الالة الكاتبة ..

رتبت الآلة فوق المكتب ، وفتحتها ، ووضعت غطاءها على الارض .. وعن يمين الالة وضعت مخطوط القصة ، وعن اليسار وضعت الورق والكربون ..

وبدأت فأخذت ثلاث صفحات من الورق وأدخلت فرخي كربون بينها ، ثم وضعتها فى الالة وكتبت العنوان .. لكنني لم أسو الصفحات في وضع مضبوط ، فجاء العنوان مائلا قليلا ..

فأخذت ثلاث ورقات أخرى وفعلت كالمرة الاولى ، وفى هذه المرة جاء العنوان مضبوطا فى الوسط ، ولكن بالمراجعة تبينت أنني وضعت فروخ الكربون معكوسة وهكذا فسدت الصورتان ..

نزعت الصحائف من الالة مستاء ووضعت غيرها .. وفى هذه المرة أخطأت فى بعض الحروف مما جعل العنوان يبدو غيرمفهوم .. وفجأة انتابني شعور أقرب الى الخوف .. فنهضت عن المكتب وأخذت أطوف بالغرفة وأنا أجيل النظر فى عناوين الكتب الالمانية القديمة التى

تزين الجدران : (قصر قلعة كامرسى) (مشاهد الطبيعة فى بلدة فيمار) (عاصفة على بحيرة ستارنبرج) (سقوط نهر الرين) ..

كانت الفيلا غارقة فى سكون مطبق ، ومصاريع النوافذ نصف مغلقة ، والضوء القليل فى الغرفة يغرى بالنوم .. وبدا لى أننى متعب ، وان الظروف الحالية لم تكن ملائمة لعملية النسخ .. وهكذا ذهبت الى أريكة صلبة فى ركن مظلم من الغرفة وتمددت فوقها ..

وأمتدت يدى الى خوان صغير قرب الاريكة عليه مجموعة من الحلى الصغيرة ، فتناولت مفكرة كبيرة ذات جلد أحمر مذهبة الحوافى ، وكانت تتضمن مذكرات خاصة من عام ١٨٦٠ .. وكان صاحب المذكرة قد رسم فى كل صفحة منظرا طبيعيا صغيرا بالحبر ، وتحت كل منظر دون خواطر وأمثالا باللغة الفرنسية .. فأخذت أجيل النظر فى هذه المناظر واحدا بعد الآخر وأقرأ كثير من تلك الخواطر العاطفية حتى غلبنى النعاس ، فوضعت المفكرة فى مكانها فوق الخوان .. واستسلمت للرقاد ..

نمت نحو ساعة .. وبدا لى أننى كنت أستيقظ بين فترة وأخرى ، فألمح المكتب والمقعد والالة الكاتبة ويدور بخاطرى أننى يجب أن أتم مهمتى ، ويساورنى شعور بالمرارة لقصورى وعجزى .. وفى النهاية استيقظت تماما ، كأنما استجابة لاشارة ..

كانت الغرفة غارقة فى الظلام .. فيممت شطر النافذة وفتحت مصراعيها .. كانت السماء لا تزال مضيئة ، ولكن الشمس كانت واطئه وتسربت أشعتها مائلة من خلال النافذة .. ودون أن أفكر فى أى شىء ، جلست الى المكتب وبدأت أنسخ ..

أتممت نسخ صفحتين بصورة آلية ، وفى الصفحة الثالثة امسكت ، واستغرقت فى تفكير عميق ··

فى واقع الأمر لم أكن أذكر على الاطلاق .. كل ما هنالك أننى لم استطع ببساطة أن استوعب معـانى الكلمات التى كتبتها بتلك الحرارة منذ أيام قلائل ·· رأيتها كلمات ، ولكنها بقيت مجرد كلمات ، وبدا لى أنها بقيت بلا معنى ،ولاوزن · كانت اجزاء من كلام ، لا موضوعات ·· أجزاء من كلام كالذى يرص مصفوفا فى صحائف القواميس ·· أجزاء كلام ، لا أكثر ··

فى هذه اللحظة ظهرت زوجتى فى مدخل الغرفة ·· واستفهمت أن كنت أشرب شايا ·· فرحبت بهذه الدعوة بارتياح ، وقد سرنى أن أجد ما يصرفنى عن شعور الضياع والضآلة الذى انتابنى أمام مسودة كتابى ، وتبعتها الى الطابق الارضى ··

كانت مرتدية ملابس الخروج استعدادا لنـزهتنا اليومية ، وقد أعد الشاى على المائدة ·· فتمالكت نفسى بجهد ، واخذت أتبادل الحديث محتفظا بهدوء أعصابى وأنا أتناول الشاى ·· وبدت زوجتى الان أقل شرود ذهن وانشغال بال ، وهذا ما سرنى ·· وبعد الشاى خرجنا وسرنا فى الممشى فى اتجاه البوابة ··

لم تكن هناك كما قلت من قبل، سوى طرقات قليلة فى المنطقة ·· وفى أحدها وكنا نعرفه جيدا وسط الحقول ، ذهبت أتقـدم ليدا وهى تتبعنى ·· وكان تفكيرى كمـا تحققت من هذا بعد قليل ، ما زال مطموسا بشعور الغموض واللبس الذى أثارته فى ذهنى قراءة النسخة الخطية من كتابى ·· بيد أنى بذلت جهدا ، وان كان فى الحقيقة قليل الحظ من النجاح ، لكى أنفى عن خاطرى

هذا الهم ، واخوض براحة بال فى أحاديث عادية ..
كان الطريق يمتد متعرجا بين الحقول ، وفقا لمواقع المزارع المختلفة ، رابطا كل مجموعة من المبانى معا .. واحيانا يمر بجرن ، أو امام كوخ منعزل ، ثم يمتــد متعرجا مرة أخرى بين سياجين نباتيين ، أو حديقة خضر ، أو بعض اشجار الكروم على حوافى كرمة .. وفى ضوء الخريف الصافى كان السهل كله مرئيا الى مدى النظر ، بكل حقوله ، وكل رقاعه الخضراء .. كان مسطحا مضاء ، تتخلله اشجار قليلة هنا وهناك،تبدو قاتمة ومن خلفها السماء صافية الاديم ، ولكن الشمس تغمرا أوراقها جميعا ..
وعندما وصلنا الى قنطرة مقوسة تعلو بركة عميقة ، وقفت أتأمل المشهد ، وسبقتنى زوجتى ..
واذكر اذ ذاك أنها كانت مرتدية تاييرا من قماش رمادى تتخلله نقط حمراء وصفراء وزرقاء .. وعندما ارسلت نظرى خلفها أول الامر وقد سبقتنى ، تملكنى الخوف ، اذ بدا لى فجأة أنها هى ايضا ، مثل مسودة كتابى ، لم تكن أكثر من ذرة فى الفضاء .. بل الفيتنى وقتها أهتف باسمها فى رقة وانوه بأغرب واسخف كلام فى الدنيا : « أن اسمى سيلفيو بالديتشى، وقد تزوجت امرأة اسمها ليدا » .. ثم رأيت أن الكيفية الوحيدة التى أهرب بها . من جو الاوهام هذا ، هو أن اتألم وأؤلم ، أو بالاحرى أن امسك بشعر زوجتى واطرحها ارضا فوق الاحجار ، واتلقى بالمثــل ركلة شــديدة فى ســــاقى ، فيتحقق الالم المتبادل، واثوب الى عــالم الحس والواقع .. وبنفس الكيفية ، قد استيقظ واقدر قيمة كتابى ، اذ أنا مزقته والقيت به فى النار ..

ان هذه الخواطر جلبت لى شعورا تويا بأننى لابد قد جننت : فهل لا يمكن اذن أن يستحوذ الانسان على نفسه أو نفوس غيره الا من خلال الالم ..؟ بيد أنى آذيت نفسى بعض الشيء بالتفكير فى أنه لو صح هذا ، واذا كان ما كتبته ، ليس هو فقط بل كذلك زوجتى التى احبها ،يبدو كلاهما عصيا على الفهم ، أذن فان احساس الضآلة الذى تملكنى لم يكن وليد المادة التى كتبتها ، بل كان مبعثه ذاتى نفسها ..

ورأيت زوجتى تبحث عن موضع تجلس فيه ، وكان هـذا شيئا عسيرا فى بقعة ريفيـة كهذه زرع كل شبر فيها — ولكل نبات قيمتـه ، وكل كتلة من التربة تضم بذرة .. واخيرا وصلنا الى منخفض وجدنا فى قاعه جدولا صغيرا يجرى ماؤه متعرجا .. وفى هذه البقة كانت الضفتان المكسوتان بالعشب تنحدران انحدارا يسيرا والجدول يكون بركة صغيرة وكأنها مرآة مستديرة من ماء أخضر كثيف ، تعلوها ثلاث أو أربع من أشجار الحور .. ووجدنا كتلة منحدرة من الاسمنت نصفها فى الماء ونصفها دخله تستخدمها النساء فى غسل وعصر الملابس ، مما يدل على ان هذه البقعة المنعزلة تستعمل كمغسل فعلا .. لكن مهما يكن فقد بدا كما قالت ليدا وهى تلقى بنفسها على الحشائش ان كل ركن فى هذا الاقليم الزراعي ينتفع به انتفاعا كاملا وهذا ما لم يكن لنا فيه حيلة .

واخذنا نتجاذب اطراف الحديث فى سكينة والوقت اصيل قبيل الغروب تخفت فيه الاضـواء وتسكن الاصـوات .. وما لبثت زوجتى أن أنتزعت عودا من

الحشائش واخذت تمضغه ، بينما جلست عن كثب منها اتطلع الى الظلال القائمة لاشجار الحور منعكسة فى صفحة الجدول اللامعة كالزجاج ٠٠ وقد تحدثنا بعض الوقت عن الزمان والمكان وانتهزت هى فرصة سؤالى عما اذا كانت تحب أن نذهب الى الجبال فى الشتاء،فراحت تسرد على حلقة من ماضى حياتها ، وقعت حوادثها فى مشتى جبلى منذ عامين ٠٠

ان الزواج الاول لزوجتى لم يدم الا فترة قصيرة ، وبعد هذا عاشت وحيدة مدى عشر سنوات ، وكان لها كما علمت عشاق كثيرون ٠٠ ولم تكن تساورنى الغيرة من امر اسلافى هؤلاء ، ولما رأت ليدا عدم اكتراثى درجت على ان تحدثنى عنهم اول الامر بحذر ، وبعد ذلك كان الحديث صريحا ٠٠ ولست ادرى لماذا كانت تفعل هذا ٠٠ لعله كان من قبيل الزهو أو لعله التحسر وهى فى ظروفها الحاضرة على ما كانت تنعم بهمن حرية لا قيد عليها ولا يمكن أن اقول أن هذه القصص كانت تهيىء لى اى سرور ٠٠ كنت اقابلها احيانا بانتفاضة دهشة ، وهو تأثير لا ارادى لحساسية غير معهودة فى شخصى ٠٠ ومن المؤكد ان هذا لميكن غيرة ، ولا كان الموضوعية العقلانية الكاملة التى كنت افاخر بانها من طبائعى ٠٠

انها جلست مكانها تمضغ عود الحشائش وعيناها تحدقان مسمرتين لا فى شخصى ولكن فى شىء كانت تراه فى خيالها ، وجعلت تسرد على قصة مغامرة من مغامراتها .. لقد شعرت أن احساس الحرج اليسير الذى كانت ذكرياتها الماضية تثيره فى نفسى عادة كان مقبولا منى هذه المرة ، وكأنه دواء مقو لشخص يشعر بأنه على وشك الاغماء ٠٠ أننى كنت فريسة لاوهام مؤلمة

عندما جلست ·· والان فان صوتها الدافيء الحسى كان يحدثنى عن اشياء من عالم الواقع لا من عالم الاوهام ، عن أشياء حدثت لها وهى لا تسرنى ·· وهذه الذكريات كانت كافية لكى تذكى فى نفوس الاخرين ذوى الدماء الحارة كراهية مضطربة أما لدى وأنا الانسان الراكد الدم بطبعى ، فانها ردت الى احساسى بنفسى ، بما اكون وبما تكون هى لى ·· ومن المؤكد أننى كنت أتعذب بكل وضوح عندما كنت استمع اليها وهى تسرد مغامراتها الغرامية مع رجل ما ·· ولكن هذا العذاب اصبح ، وهو يكفى لايقاظ حيويتى الخامدة ، أدعى الى سرورى ، وفقد طبيعته الضارة التى لا مبرر لها ·· ربما كان سما ، ولكنه واحد من تلك السموم التى أخذت جرعات صغيرة ترد المريض الى الحياة ··

حدثتنى عن مغامرتها فى جبال الالب مع ضابط أحمر الشعر فى حرس الجبال ، فراحت تقول :

« كنت فى الجبال فى شهر مايو ، ولما كانت الثلوج قد انحسرت عن المكان الذى كنت فيه فقد ذهبت للاقامة فى فندق المتسلقين على ارتفاع نحو خمسة آلاف قدم ·· ولم يكن هذا المكان مقصدا لاحد ، وقد امضيت الايام فى شرفة الفندق جالسة فى مقعد مستطيل أقرأ واتعرض للشمس ··· وذات يوم جاء جماعة من ضباط حرس الجبل قادمين من الوادى ··· وكنت وقتها فى الشرفة كالمعتاد ، وبدأوا يخلعون زحافاتهم لكى يدخلوا الى الفندق ويتناولوا الشراب ·· وكان من بينهم ضابط شاب احمر الشعر منقط الوجه ازرق العينين ·· ولم يكن مرتديا قبعة ولا سترة بل مجرد قميص اخضر غامق ، وعندما انحنى لكى يخلع زحافته رأيت ظهره يدل على

الشباب والقوة ٠٠ ولما اعتدل نظر الى ونظرت اليه ، وكان فى هذا الكفاية بالنسبة الى ٠٠ وقد تملكنى خوف شديد من ان يكون لم يفهم ، فى حين انه فهم فعلا ، كما ستری ٠٠ واذكر اننى نهضت من مكانى متضايقة ودخلت الى القاعة الرئيسية فى الفندق ٠٠ فذهب الشاب وغرس زحافته راسية فى الثلج ثم دخل فى اثرى ٠٠ وكان رفاقه قد سبقوه فى الجلوس الى مائدة فجلس معهم موليا ظهره الى النافذة ووجهه الى القاعة ٠٠ وذهبت الى المقصف وطلبت شايا ثم جلست الى مائدة مواجهة لمائدتهم ٠٠ وكانوا يضحكون ويتمازحون بينما جعلت احاول ان استرعى نظره ببلاهة ٠٠وقد اخبرنى فيما بعد انه انتبه الى مناوراتى ٠٠ لكنى توهمت وقتها عندما رايته لا يتناول حتى بالنظر الى ناحيتى انه لم يلاحظنى ٠٠ واخيرا نظر الى ولكى لا يكون هناك مجال لاى خطأ فاننى وضعت اصابعى على شفتى والقيت له بقبلة ، كفتاة صغيرة ٠٠ وقد رآنى افعل هذا ولكنه لم يبد اشارة ما تدل على الفهم ٠٠ وعندئذ بدأت اخاف الا يكون استلطفنى ٠٠ ولم البث ان خلعت سترتى وكأننى اشعر بحرارة شديدة وتظاهرا منى باننى اريد ان ارفع الحمالة تحت البلوزة فقد كشفت عن جزء من كتفى ٠٠ ولكن فى اللحظة التالية تملكنى الغضب ،فتركت القاعة وعدت الى مقعدى المستطيل فى الشرفة ٠٠

وجلس الشبان فترة طويلة الى شرابهم ، ثم ما لبثوا ان خرجوا هم ايضا واخذوا زحافاتهم وذهبوا ٠٠ فجلست انتظر فى مقعدى وانا غير متأكدة من شىء ٠٠ وغربت الشمس ومازلت انتظر وقد بردت أطرافى وكدت أفقد الامل ٠٠ وكنت فى حالة يأس تام عندما ظهر فجأة هابطا

السفح على زحافته ٠٠ فتقدمت لمقابلته وقد امتلات نفسى بهجة وقال لى : « كان لابد ان اختلق اعذارا كثيرة ٠٠ انهم لم يصدقونى لكن هذا لا يهم فى الواقع » ٠

كان هذا هو ما قاله وكأننا كنا نعرف بعضنا دائما ٠٠ أما أنا فلم أجبه ،فأننى كنت فى حالة من الانفعال لم استطع معها اى كلام ٠٠ ولم يلبث ان خلع زحافته ببطء شديد ، وامسكت بيده واخذته الى غرفتى ٠٠ تصور !٠٠ اننى لم اعرف حتى اسمه ! » ٠

اننى دونت هذه القصة بكلماتها الوجيزة ٠٠ انها لم تحاول قط ان تبرز الجانب الحسى فى سردها لهذه القصص ، ولكن نبرات صوتها كانت تكشف عن كل شىء ٠ والواقع ان هذه القصص كانت تذكى حيويتها ، وتزيد من فتنتها ٠٠ وفى تلك الجلسة ،بعد أن فرغت من سردها ، ادركت ان فيها حيوية هى اقوى من كل قانون ادبى ، او وازع خلقى ٠٠

لحظتها لم اكن زوجا ينصت متكدرا الى الذكريات الغرامية لزوجته ، ولكن كنت أقرب الى كتلة تراب جافة عصمها من التفتت فى التربة والضياع ،سقوط مطر مبارك فيه الخير ٠٠

لقد نظرت اليها وهى جالسة مكانها منهمكة فى التفكير تمضغ عود الحشائش ، فادركت وقد تملكتنى الدهشة اننى لم اعد اشعر بتلك الاوهام المؤلمة التى افترستنى من قبل ٠

الفصل الثالث عشر

عدنا متباطئين الى المنزل ، وعاد الى الهدوء والسعادة كما كنت فى اطيب اوقاتى ، وعدت اتحدث واامازح ممتلئا ثقة بنفسى ..

وعندما وصلنا الى الفيللا كان الوقت متأخرا عن المعتاد ، فصعدت زوجتى الى غرفتها رأسا لتغيير ملابسها .. اما انا فقد وضعت اسطوانة فى الفونوغراف ، وهى رباعية لموازار ، وجلست فى المقعد ذى المسندين استمع وانا اشعر بالبهجة والتجرد عن اى شىء آخر ..

وعندما وصلت الرباعية الى قصة البطيئة وانعطفت على شطرها ذى الحوار المؤثر لهــذه الرقصة ، التى تضمن التساؤلات الرنانة واجاباتها الرشيقة المرسومة بالاكتئاب ـ خطر لى ان هذه التساؤلات واجاباتها اكثر من مجرد نبرات اصوات ذكر وانثى : انما تكنى عن موقفين متميزين ، احدهما ايجابى والثانى سلبى .. احدهما هجومى والثـانى وادع .. احدهما مفتــون والثانى مغرر فاتن .. ان هذه الانغام فيما بدا لى توحى بارتباط لا يتغير خلال الزمن ، وسيان كان الاثنان اللذان يلتقيان فى الرقصة ينتميان الى عالم اليوم أو الى عالم ما

قبل قرنين ·· قد يكونان نحن الاثنين ، زوجتى وانا ·· وهذه هى الرقصة التى نرقصها بطريقتنا الخاصة ، كما رقصها من قبلنا وعلى مدى العصور والاجيال ازواج لاعداد لهم ولا حصر ··

ولم افطن الى مضى الوقت وانا مستغرق فى خواطرى ، حتى اننى كدت ادهش عندما رأيت ليدا تظهر امامى وهى مرتدية فستان الامس الابيض القصير··

انها أوقفت الفونوغراف فى وسط الاسطوانة قائلة بشىء من الضجر ·

ـ لا اعرف لماذا ، ولكنى لا أحب ان انصت الى الموسيقى هذا المساء ·

وبعد ان جلست بجانبى على ذراع مقعدى ، قالت لى بلهجة عرضية :

ـ أذن فسوف تبدأ فى نسخ قصتك هذا المساء ؟

وعمدت وهى تلقى هذا السؤال الى مرآتها التى كانت فى حقيبة يدها تنظر فيها وتسوى اعواد الازهار النضرة التى تزين شعرها ·· فاجبتها راضيا :

ـ نعم ·· سوف ابدأ فى النسخ على الالة الكاتبة هذا المساء وسأعمل حتى منتصف الليل على الاقل ·· اننى اريد ان اواصل النسخ واتمه فى خلال ايام قليلة ··

فقالت وهى تلامس شعرها :

ـ حتى منتصف الليل ؟ الا يغلبك النعاس ؟

فأجبت قائلا :

ـ ولماذا « أنى تعودت العمل ليلا ·

وطوقت خصرها بساعدى، واضفت قائلا :

ـ اننى اريد ان انتهى سريعا ، حتى يمكننى تكريس نفسى اليك كليا ··

فاعادت المرآة الى حقيبة يدها وقالت :
ــ لماذا ؟ ·· الا تظن اننافي استكفاء كما نحن الان ؟ ··
فأجابت بلهجة مليئة بالمعانى :
ــ لا ·· ليس بالطريقة التى اريدها ··
ــ آه ·· فهمت ··

ونهضت ليدا عن ذراع المعقد ، وانشأت تذرع الغرفة جيئة وذهابا ، بكيفية تنم عن الضجر والتململ ··· فسألتها :

ماذا جرى ؟ ··
فاجابت بلهجة الجفوة والتبرم :
ــ انا جوعانة ·· هذا هو ماجرى ···
ثم اردفت بصوت اكثر رقة :
ــ الست جائعا انت ايضا ؟ ··
فاجبت :
ــ بين بين ·· لكنى لا اريد ان اكل كثيرا ، والا غلبنى النعاس فيما بعد ·
ــ من المؤكد انك تعنى بنفسك الى اقصى حد ··
والحق أن ردها جعلنى انتفض ، أذ كانت عبارتها غير سارة ولم اكن مستعدا لسماعها فقلت لها بهدوء :
ماذا تقصدين بذلك ؟ ···
ولما رأت انها ساءتنى توقفت امامى ولامستنى مترددة مدللة قائلة :
ــ انا آسفة ·· عندما يكون الانسان جائعا يصبح فى حالة سيئة ·· لاتلتفت الى كلامى ··
فقلت وقد تذكرت حادث انطونيو :
ــ هذا صحيح ·· ان الجوع يجعل الانسان متوترا ··

فسارعت تقول :

ـ لابأس ٠٠ كيف ترى هذا الفستان ؟ ٠٠

من المرجع انها سألتنى هذا السؤال بقصد تغيير مجرى الحديث ، أذ كان هو نفس الفستان الذى أرتدته بالامس كما قلت ، وقد رايتها تلبسه مرات ٠٠ ورغم ذلك فانى قلت اجاريها :

ـ نعم ٠٠ هو بديع ٠٠ وهو يناسبك جدا ٠٠٠ دورى مكانك ودعينى انظر ! ٠٠٠

فاستدارت طائعة لكى تريني قوامها ٠٠ وعندئذ لاحظت تغييرا طفيفا ٠٠ فبالامس استرعى نظرى انها لبست نوعا من حزام امريكى (كورسيه) مصنوع من الحرير والمطاط فيما حول وسطها فأدنى تحت نسيج الفستان الخفيف الشفاف ٠٠ وكان من عادتها ان تلبس هذاالحزام احيانا للمحافظة على استقامة عودها ٠٠ ولم اكن احب هذا الحزام ، اذ كان فضلا عن أمكان رؤيته صلبا مشدودا تحت الفستان الرحب حتى أنه عند الملامسة كان منفرا الىحد يشعرنى بشىء أقرب الى جهاز تجبير الاعضاء ٠٠ أما الآن فقد لاحظت عدم وجود الحزام ، وقد بدت أمامى أوفر طراوة وأدنى الى السمنة ٠٠ فقلت لها بلهجة عرضية ٠

ـ انك لم تلبسى حزامك الامريكى المدرع هذا المساء ٠٠

فنظرت الى ، ثم اجابت بغير اكتراث :

ـ لم البسه لاننى تضايقت منه ٠٠ لكن كيف عرفت ؟ ٠٠

ـ لانك لبسته أمس ، وكان ظاهرا ٠٠

فلم تقل شيئا ٠٠ وفى هذه اللحظة جاءت الخادمة لكى تعلن ان العشاء قد اعد ٠٠ فذهبنا الى حجرة الطعام

وجلسنا الى المائدة ، وتناولت زوجتى الطعام الذى قدم اليها ٠٠ وعندئذ لاحظت انها لم تكن جائعة ، خلافا لما قالته من قبل ، لم تأخذ من الطبق الذى قدم اليها اكثر من نصف ملعقة ٠٠ فقلت لها وانا اتناول نصيبى :

ـ انك كنت جائعة جدا ٠٠ والان اراك لا تلمسين شيئا ٠٠

فصوبت الى نظرة مستاءة ، وكأنما ساءها أن (أضبطها) ٠٠ وقالت :

ـ كنت مخطئة ٠٠ اننى لا اشعر باى جوع ٠٠ والحقيقة أن منظر الطعام يقرزز نفسى ٠٠

فقلت بلهجة القلق :

ـ الا تشعرين بانك على ما يرام ؟ ٠٠

فترددت ، وما لبثت ان اجابت فى نفس واحد ، وبصوت شديد الخفوت :

ـ اعتقد أننى على ما يرام ٠٠ لكننى غير جائعة ٠٠

ولاحظت وهنا فى صوتها ، وبدا نفسها يخونها بين مقاطع الكلمات ٠٠ ولم تلبث ان لزمت الصمت وهى تنبش بشوكتها فى الطبق ٠٠ ثم وضعت الشوكة وتنهدت عميقا ، واضعة يدها على صدرها ٠٠ فقلت منزعجا :

ـ لكنك لست على ما يرام قطعا ! ٠٠

وفى هذه المرة سلمت بكلامى قائلة بصوت مجهد وكأنها على وشك الاغماء :

ـ نعم ٠٠ اننى اشعر بضيق واختناق ٠٠

ـ هل تحبين ان تتمددى على الاريكة ؟ ٠

ـ لا ٠٠

ـ هل تحبين ان استدعى الخادمة ؟ ٠٠

ـ لا ٠٠ لكن بامكانك ان تعطينى شيئا اشربه ٠٠

فصببت لها بعض النبيذ ، وبدا ان شربها له قد انعشها ..

وجاءت الخادمة بالفاكهة ، فلم تقربها .. واكلت انا عنقود عنب على مهل بينما راحت تنظر الى بعينين بدا وكأنهما تعدان كل عنبة ارفعها الى فمى .. وفى اللحظة التى سقط فيها ساق العنقود مجردا من يدى ، وثبت ليدا قائمة بقوة ، قائلة :

ـ الان سأذهب الى الفراش ..

ـ الا تريدين القهوة ؟ ..

قلت لها ذلك منزعجا من صوتها المرتفع المكروب النبرات وأنا اتبعها الى غرفة الجلوس ..

فاجابت واصابعها على مقبض الباب بصوت جاف متبرم :

ـ لا .. لا اريد قهوة .. اريد ان انام ..

فطلبت الى الخادمة ان تجيئنى بالقهوة الى غرفة مكتبى فى الطابق العلوى وتبعت زوجتى التى فتحت الباب اثناء ذلك متجهة الى السلم .. وقد لحقت بها ، وقلت بلهجة عرضية :

ـ اننى سأبدا عملى الان ..

فردت قائلة دون ان تلتفت :

ـ وانا سأنام ..

ـ هل انت متأكدة ان حرارتك غير مرتفعة ؟ ..

قلت هذا وانا امد يدى لكى اضعها على جبينها .. بيد انها ابتعدت وقالت فى تبرم :

ـ آه يا سيلفيو .. أنت دائما تحب التدقيق فى كل شىء ! .. انا متوعكة .. وهذا كل ما هناك ..

لزمت الصمت وقد خامرنى أرتباك يسير .. وعندما

وصلنا الى الردهة تناولت يدها وكأننى اريد تقبيلها ، ثم ترددت ، وقلت :

ـ اريد ان اطلب منك جميلا ٠٠

فقالت فى رنة تهدج فى صوتها ادهشتنى :

ـ اى جميل ؟ ٠٠

فقلت متخبطا :

ـ أريد أن تدخلنى مكتبى لحظة وتضعى قبلة على الصفحة الاولى فى قصتى ٠٠ انها سوف تجلب لى الحظ ٠٠

فارسلت ضحكة كانت ودودة ومتكلفة فى نفس الوقت ٠٠ ولكن بدا لى مع ذلك ان الود والتكلف صدرا عن أخلاص وصدق بصورة غريبة ٠٠ وأسرعت الى داخل غرفة مكتبى هاتفة بقولها :

ـ يا لك من مؤمن يا للخرافات ! ٠٠ يا لبلاهتك ! ٠٠ لكن كما تحب ٠٠

فاضاءت النور ، ولكنها كانت قد وجدت طريقها فى الظلام الى مكتبى ، وقالت مكررة سؤالها بلون من الحماسة المحمومة :

ـ اين الصفحة ؟ ٠٠ قل لى اين الصفحة التى تريد ان اقبلها ؟ ٠٠

فذهبت اليها وناولتها الصفحة الاولى التى لم اكتب فيها على الالة الكاتبة سوى العنوان (حب الازواج) ٠٠

فاخذتها ، وقرأت العنوان بصوت مسموع معلقة عليه بتعبير من وجهها لم استطع فهمه ، ثم رفعت الصفحة الى فمها وضغطت عليها بشفتيها ، وقالت :

ـ هل رضيت الآن ؟ ..

ان الصفحة فيما تحت العنوان مباشرة ، قد حملت الان بصمة شفتيها : قوسين احمرين ، كورقتى وردة ·· ورحت اتفرس فيهما برهة وانا اشعر بالرضا والارتياح ، ثم قلت برقة :

ـ شكرا لك ، يا عزيزتى ··

فرفعت يدها وربتت على خدى بحركة سريعة ، ثم اتجهت الى الباب قائلة على عجل :

ـ حظا طيبا لكتابك ·· اننى ذاهبة للنوم ·· انى اشعر فى الواقع بتعب شديد ·· ارجوك الا تطرق باب غرفتى لاى سبب كان ·· اننى اريد ان انام ·· هذا كل ما هناك ·· الى اللقاء غدا ··

ـ حسنا ·· الى الغد ·

وخرجت ، وكادت فى خروجها تصطدم بالخادمة التى كانت آتية بالقهوة ·· وعندما ذهبت الخادمة ايضا ، اشعلت سيجارة ، وجلست الى مكتبى ، وشربت فنجانين من القهوة متتاليين ، وفى النهاية رفعت غطاء الالة الكاتبة ··

كنت شاعرا بصفاء ذهنى غير عادى ، وكأنما ضم رأسى بدلا من افكاره المعتادة المشوشة المبهمة المتضاربة ، ميزانا دقيقا او ساعة مضبوطة ·· لقد احسست ان هذا الجهاز الدقيق الذى ضمه رأسى ينبذ كل غرور ، وكبرياء ، وخوف ، وطمع ·· لقد احسست انه بمثابة اداة ضبط متناهية الدقة ، لا يعتورها الفساد والهوى ، ولا تتأثر ادنى تأثير ذاتى ، وبها سوف اسبر واقيس ، واقيم واقدر ، وابلغ بها معيار الكمال للعمل الذى اوشك ان انسخه ··

وهكذا وضعت سيجارة بين شفتى ، وركزت نظراتى

على ورقتى الخطية ، واستانفت نسخ الصفحة التى كنت اتممت نصفها ٠٠

وبعد ان نسخت اربعة سطور ، لم البث ان وضعت السيجارة فى المنفضة ، وازحت الالة جانبا ، ثم تناولت الخطوط وأخذت فى قراءته ٠٠

كنت اشعر بصفاء ذهنى فريد كما اسلفت ٠٠ ولم البث بعد نسخ السطور الاربعة ان شعرت بلون من الزيف كان جليا كل الجلاء ، وكان شبيها بصوت زجاج متشقق ٠٠

وبعبارة اخرى ، سطع فى ذهنى ان القصة لم تكن فقط بعيدة كل البعد عن تلك (الرائعة) التى تصورتها ، بل رديئة حقا ٠٠

لقد قلت آنفا ان لدى خبرة ادبية ، واننى فى بعض المواطن استطيع ان أغدو ناقدا معقولا ٠٠ وفى هذه اللحظة تأكدت بذلك الصفاء الذهنى غير العادى الذى تملكنى ، ان ملكة النقد عندى كانت تعمل الان على اشدها فى ارجاء تلك الصفحة التى اخذتها بين يدى ٠٠ ولم تعد الكلمات مجرد كلمات ، بل قطعا من معدن جعلت اختبره وامحصه اتم تمحيص بمعيار ذوقى الناقد ٠٠ ولم اقرأ القصة كلها مكتملة ، لاننى رغبت عن التأثر بسياقها المطرد ووحدتها الشاملة ، ولكننى جعلت اقرأ شذرات منها هنا وهناك ، وكلما زدت قراءة زدت نبوا وبعدا عن الطمأنينة ٠٠ وبدا لى أن يستحيل أن اكون مخطئا الان ٠٠ فان القصة كانت رديئة الى ابعد حد ، تستعصى على كل علاج او تقويم ٠٠

وفجأة طغت على نوبة من الموضوعية ، فتناولت ورقة بيضاء بقلمى واخذت ادون ملاحظاتى كما تواردت فى رأسى ، كما كنت افعل وانا انقد كتابا بعينه ٠٠

في اعلا الورقة البيضاء كتبت بيد ثابتة : (ملاحظات على قصة « حب الازواج » تأليف سيليفيو بالديتشى) ثم وضعت خطا تحت هذا العنوان وأنشأت أسجل ملاحظاتى ..

اننى التزمت الاسلوب الذى كنت احتذيه عادة وانا ادبج مقالاتى فى النقد ، اعنى تحليل الموضوع متقطعا فى جميع صوره وشتى مظاهره ، ثم ضم هذه الملاحظات التفصيلية فى النهاية بعضها الى بعض ، وصياغة حكم واحد شامل .. وبالطبع لم يكن فى نيتى ان اكتب مقالا عن نفسى .. انما اردت فقط ان اقيم الاسباب التى بنيت عليها أحساس بان القصة رديئة .. وربما أيضا لكى اعاقب نفسى اذ اعتقدت من قبل انها احدى الروائع .. ولكن فوق كل شيء للوصول الى نتيجة واضحةنهائية فى صدد مطامحى الادبية .

الفصل الرابع عشر

هـذا هو ما دونته فى الورقة الجديدة ··

أولا : **الاسلوب** ·· وتحت هذا العنوان كتبت بسرعة : منمق ، سـليم ، محتشم ، ولكنـه بعيد عن الاصـالة ، والذاتية ، والجدة ·· ملىء بالتعميمات الغامضـة ، مسهب حيث ينبغى ان يكون موجزا ، موجز حيث ينبغى أن يكون مسهبا ·· والنتيجة أنه حشو تام لانه نتيجة حتمية للممارسة والصنعة ·· هو اسلوب بلا طابع مميز او ذاتية محددة ، اسلوب انشائى مجتهد ، خلا من كل اثر للاحساس الشاعرى ··

ثانيا : **التشـكيل والكيـان** ·· لا اثر لهما ·· يقرر الامور بدلا من ان يمثلها ، يكتبها بدلا من ان يصورها · تنقصه الحقيقة الواضحة ، والكيان ، والرسوخ ··

ثالثا : **الشخصيات** ·· سلبية ·· يحس المرء انها لم تخلق بالبديهة السمحة ، وانما نقلت باجتهاد وصنعة ، ونسخت عن الطبيعة بواسطة (معيبة على اى حال) ، هى الادراك المهتز ، الغائم البـدائى ·· الشـخصيات مركب ومزاج من ملاحظات دقيقةولكن بلا حياة ، وليست خلقا سويا حيا · انها تتفسخ ، وتناقض بعضها بعضا ،

وتختفى احيانا من الصفحات ، غير تاركة وراءها سوى أسمائها .. وهذه الأسماء ، سواء سميت الشخصيات بلولو او لونزوا او اليزا او ماريا ، تفضح اصطناعها ، لان المرء يحس أنه يمكن تغييرها دون أدنى ضرر ٠٠انها ليست شخصيات على الاطلاق فى الواقع ، بل صور فوتوغرافية من عدسة ٠

رابعا : **الحقيقة السيكولوجية** ٠٠ هزيلة ٠٠ افتـاء وتخريج زائدان عن الحد ، وحذق مفرط ، وملاحظات مسرفة غير ذات موضوع ، وحظ ضئيل من سلامة الفطرة ٠٠ يشعر المرء ان المؤلف يتحرك من الخارج الى الداخل اعتباطا ، لا بطريق الحقيقة المستقيم ، ولكن بدروب جانبية قوامها السفسطة والمغالطة ٠٠

خامسا : **الاحساس** ٠٠ بارد وذابل ، تحت انتفاشات الحقيقيين ٠٠ هى عاطفة ، وليست أحساسا ٠٠

سادسا : **حبكة الموضوع** ٠٠ سقيمة البناء ، غير متوازنة ، مليئة بالمتنـافرات والاحابيل ، والحشـو ، وغيـر ذلك من الفخاخ السائنة ، تحت مظهر الاقتدار والملابسة ٠٠ والحركة فيها مقصورة على المحيـط الخارجى ، وهى آلية ، اذ انها خلت فى مركز الدائرة من أية قوة محركة دافعة ٠٠

سابعا وأخيرا : **الحكم الشامل** ٠٠ هو كتاب هاو للفنون ، شـخص وأن كان متمتعـا بالـذكاء والثقافة والتذوق الا أن تعوزه القوى الخلاقة ٠٠ أن الكتاب يعجز عن كشف أى شىء جديد ، أو أى اتجاه جديد فى الادراك والحساسية ٠٠ هو كتاب أسسه كاتبه على كتب أخرى ٠٠ هو فى الدرجة الثانية والثالثة من القيمة ٠٠

هو انتاج صناعى ، كانتاج المفرقعات ..

النتيجة العملية : هل يمكن نشر الكتاب ؟ .. نعم بالطبع .. يمكن نشره بالتأكيد .. ولماذا لا ينشر فى (طبعة أنيقة) مع لوحة أو لوحتين من عمل أحد الفنانين المعروفين ، وبعد حملة دعاية مناسبة فى الدوائر الادبية ، يمكن أيضا أن تكتب عنه بعض المجلات المداحة، بل المتحمسة ، طبقا لما يجده كتاب هذه المجلات من منفعة ووفاقا لدرجة صداقتهم للمؤلف .. (لكن الكتاب ذاته ليس بذى قيمة) ..

أننى وضعت العبارة الاخيرة بين قوسين بعد أن لخصت فيها كل شىء فكرت فيه عن القصة .ثم تأملت برهة ، وبعدها أضفت هذه الحاشية :

(تبقى بعد ذلك على أى حال حقيقة هى أن الكتاب قد أعد فى ظروف فكرية تمثل أتم درجات السعادة والحماسة ، وانه بالتأكيد أفضل ما يمكن انتظاره من المؤلف .. والواقع ان هذا الاخير كان مقتنعا وهو يؤلف الكتاب انه خلق رائعة من الروائع .. ويترتب على هذا أن المؤلف عبر عن نفسه فى الكتاب طبقا لما هو كائن فعلا ـ أى كرجل يعوز احساس الخلق ، كمجرد حالم كاحلام اليقظة ، كانسان حسن القصد ، كعقيم .. ان هذا الكتاب هو المرآة الصادقة لمثل هذا الرجل) ..

كان هذا الحكم كافيا فى اللحظة الراهنة .. فأعدت المسودة الى حافظتها ورفعت الصحائف من الالة الكاتبة ، ووضعت غطاءها ..

ثم استويت قائما وأشعلت سيجارة وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهابا ..

لقد تجلى لى اذ ذاك أن وضوح الرؤية العقلية التى

اغتبطت بها من قبل أيما اغتباط قد استحالت الان الى رؤية زائفة لهذيان محموم لا رجاء فيه ..

ان هذه الرؤية بعد أن جعلتنى أدون هذا الحكم الصارم على عملى ، ظلت عالقة بذهنى ملازمة لـه باصرار ، كما يلازم ضوء القمر سطح بحر عاصف حيث يطفو حطام سفينة ممزقة ، كبيرا وصغيرا ..

ان عقلى ذهب يطوف بهذا الوضوح المحموم ، من حول الحطام النهائى لاحلامى ومطامحى ، يسلط عليها الضوء فى كل ظواهرها ، ويضفى عليها المزيد من المرارة الشاملة ..

فى تلك الايام العشرين التى لـم أفعـل فيهـا شيئا سوى الكتابة ، صارفا ذهنى عن كل ما عداذلك من الشواغل ، تراكمت فى أعماق وعيى أكداس ضخمة من الخذلان ووهن العزم .. والان ، فان الاسداد القائمة على هذه الخواطر المجنونة فى نفسى مـا لبثت أن تصدعت ، فجرى فيضها فى كل مكان ، وشعرت به يغمرنى رغم كل هدوء فى طبعى .. وهكذا طوحت بالسيجارة التى أشعلتها منذ برهة ، ورفعت يدى دون وعى منى الى رأسى أضغط بهما على صدغى .. فقد أدركت أن فشل كتابى هو أيذان بفشل عام لحياتى كلها ، وشعرت أن كيانى كله يثور على هذه النتيجة ..

ومن المستحيل أن أصف ما لابسنى من شعور ـ هو احساس حاد بانهيار فجائى تمزقت فيه الشظايا وتطايرت الاشلاء .. هو انغمار « رأسى فى الضياع والخواء .. وفوق كل شىء ، لقد تمردت على نفسى وأنا عبد لكتابى ، فأنا لا أريد أن أكون هزيلا ، عاجزا ، ضعيفا .. ومع ذلك كنت أعلم أن تمردى هذا لا يغير من واقع أمرى شيئا ..

في فورة اليأس هذه شعرت كأن جسدى لم يعد له وزن ، وأننى أطير فى جو الغــرفة كورقة يابسة ميتة اكتسحتها ريح عنيفة .. اننى لم أعد مدركا للحركات التى تصدر عنى ، ولا للاخطار التى كانت تشكل نفسها فــى ذهنى .. ولاشـــك أن فــكرة الالتجــاء الــى زوجــتى فى هــذه البــلوى بقصـــد التسرية عن نفسى قد برقت فى ذهنى قبل أن اترجمها الى عمل ، وهكذا الفتينى بحركات لا شعورية أفتح باب غرفة المكتبواجتاز الردهة الصغيرة ، وفى النهاية وجدتنى واقفا أمــام بابها .. فرفعت يدى وطرقت الباب .. ولاحظت فى نفس اللحظة أن الباب لم يكن موصدا بل كان مواربا فقط ، وقد ادهشنى ، ولا أدرى لذلك سببا ، ان أرى مظهر الاحتياط الذى كان عليه الباب فى هذا الوضع .. ولم أجد ردا على تكرار الطرق ، وهكذا طرقت مرة ثالثة بصوت أعلى ، ثم لم ألبث ، بعد فترة معقولة ، أن دفعت الباب ودخلت . .

كانت الغرفة مظلمة .. وهكذا اضأت النور الاوسط ، فكان أول شىء رأيته ، فى ذلك الضوء الشاحب ، هو رداء نوم زوجتى مطروحا فوق الفراش الذى بدا انه لم يمس .. وقد خطر لى انها لم تستطع النوم ، ونزلت الى الحديقة .. لكننى فى نفس الوقت لم أتمالك أن شعرت بشىء من الاستياء .. فقد كان بوسعها أن تطرق بابى وتخبرنى .. لماذا تضطر الى الخروج وحدها ؟ ..

ونظرت اليه المنبه فوق الخوان المجاور للسرير ، فادهشنى أن رأيت انه مضى نحو ثلاث ساعات منذ أن طلبت الى زوجتى تقبل صفحة العنوان فى قصتى .. أن الاحداث تعاقبت كثيرة وسريعة حتى خيل الى انه الم

يمض أكثر من نصف ساعة ·· وهكذا تركت الغرفة ونزلت الى الطابق الارضى ··

كان الباب الزجاجى الازرق والاحمر لغرفة الجلوس مضاء ، والمكان كله يبدو مستيقظا ·· فدخلت الى الغرفة وأنا واثق أننى سأجد زوجتى بداخلها .. لكنها كانت خاوية ·· كان الكتاب الذى كانت تقراه موضوعا على المنضدة ، مفتوحا ومقلوبا ، وكأنما وضعته هكذا فى أثناء القراءة ·· وكان بجانب الكتاب منفضة سجائر مملوءة بأعقاب سجاير طويلة ومبقعة بأحمر الشفاه ، والظاهر ان زوجتى نزلت الى الطابق الارضى مرة ثانية عقب أن تمنت لى ليلة طيبة وأمضت فترة المساء فى غرفة الجلوس تدخن وتقرأ ·· ثم لم تلبث أن خرجت للقيام بجولة فى الحديقة ، لكن ليس منذ فترة طويلة ، اذ كان جو الغرفة مليئا بالدخان بالرغم من فتح النافذة الكبيرة ·· ربما خرجت منذ برهة قصيرة فقط ، وبامكانى أن ألحق بها ·· وهكذا خرجت بدورى الى البقعة المكشوفة أمام الفيلا ··

ان بريق ضوء القمر الابيض فوق الحصى ذكرنى بمسيرتنا فى الليلة الماضية الى مبانى المزرعة ·· وفجأة ، فى غمرة ما كنت أشعر به من يأس وفورة نشاط معا ، سيطرت على رغبة أن أفعل الان ، ذلك الذى لم استطع أن افعله وقتها : أن أطارح ليدا الحب فى الجرن ، فى ضوء البدر الساطع ، وفى سكون الريف الهاجع ··

من المؤكد أن هذا الدافع كان طبيعيا ومنطيقيا وعاديا ·· كنت راضيا هانئا بهذه البادرة ، كفلاح يلتمس بين احضان زوجته الراحة والعزاء عما استهدف له من الضر فى عاصفة ثلجية نزلت بحقله ··· وعلى

اى حال فأنه لم يبق لى بعد تحطيم آمالى ومطامحى الا قبول وضعى ككائن بشرى ، مثل وضع غيرى من سائر الناس ٠٠ ليلة اليأس هذه ، لا مفر أن أقتنع بأن أعزر شخصا عاديا ، له دراية بالادب وهو يشعر متواضعا بمواطن قصور ، ولكنه فى نفس الوقت ، المحب ، والمحبوب من زوجته الشابة الجميلة ٠٠ لابد أن كرس لها كافة المشاعر الجياشة التى حرطت فى مجال الادب ٠٠ ان النساء يحببن اولئك الرجال غير الموفقين الذين ينبذون كافة المطامح الا مطمحا يجعلهن سعيدات هانئات ٠٠

على هذا النحو من التفكير سرت فى الممشى وأنا مطرق الرأس فى تأملاتى ٠٠ ولما رفعت رأسى ابصرت ليدا ٠٠ او بالاحرى لمحت جانبامنها مدى لحظة واحدة ، على مسافة بعيدة ، وهى تستدير فى منعطف الممشى وتختفى عن نظرى ٠٠ كان التمر يضىء الطريق فى تلك البقعة ٠٠ وقد استطعت ان ألمح بوضوح فستانها الابيض ، وعنقها العارى وشعرها الذهبى ٠٠ ثم اختفت ، وكنت مقتنعا بانها ذاهبة فى اتجاه مبانى المزرعة ٠٠ وقد حلا لى أن افكر فى انها ذاهبة الى الجرن ، الى المكان الذى كنت أريد ان أطارحها الحب فيه ، وكأنما هى ذاهبة الى موعد ، ومع ذلك لا تعرف ان هذا الموعد كان معى ٠٠

ولم البث أن انعطفت بدورى فى الطريق ، ثم رأيتها مرة ثانية وهى تتقدم الى درب جانبى كنت اعلم انه يؤدى الى الممر الذى يمتد بين الحقول والمنتزه ٠٠ وكنت أناديها ، لولا انى امسكت ، مقدرا أن الحق بها واطوقها بساعدى ، لكى أفاجئها ٠٠

كنت فى الدرب عندمــا انعطفت هى الى الممــر ٠٠
فأخذت أسير فى الممر وقد وصلت عندئذ الى أسفل المرتفع الذى تقوم عليه مبانى المزرعة ٠٠

كانت فى سيرها تكاد تــجرى ٠٠ ولاول مرة فــأن وجهها الابيض وهى تمر مسرعة بين الاطياف الســوداء للاشجار ، بدا فى صورة غريبة ٠٠ ولم البث عندما وصلت بدورى الى أسفل المرتفع أن تملكنى شعور بالتشاؤم لم أستطع تفسيره ٠٠

ورأيتها ترتقى السفح المنحدر فى اتجاه الجرن ، حيث كانت أكوام القش الثلاثة ٠٠ وكانت تتشبث بالشجيرات وهى تنزلق وتتعثر فى صعودها ، وخيل الى فى اللهفة البادية فى وجهها وفى تحديق نظراتهــا وفى حركــة جسدها كأنها عنزة تصعد السفح بحثا عن الطعام .

وما أن وصلت الى قمة السفح حتى لاح من خلال الظل هيكل رجل ما لبث أن انحنى وأمسك بذراعها وجذبها كلها ٠٠ وفيما كان الرجل يستدير لكى يسندها ، عرفت فيه انطونيو ٠٠



فهمت الان كل شىء ٠٠

وغمرنى شعور بارد شديد ، وتملكتنى فى نفس الوقت هشة مطبقة لم افهمها من قبل ، لا عندمــا ذهبت الــى غرفتها منذ فترة قصيرة ووجدتها خالية ، ولكن منذ ثلاثة أسابيع ، عندما طلبت منى أن أطرد الحلاق ٠٠

ان هذه الدهشة قد خالطها كرب شديد قاس استل أنفاسى وأنشب أصابعه فى قلبى .. لم أرد أن أنظر ، حتى ولو من قبيل احترام الذات ٠٠ ولكن بدلا من ذلك رحت أحدق بشراهة وبعينين متسعتين ٠٠

كان الجرن أشبه بمسرح عال من فوقي ، يضيئه القمر ·· وعندما اعتدلت ليدا في وقفتها ، شاهدت الرجل يمسك بذراعيها محاولا جذبها اليه ، وهي تحاول مقاومته ، ثانية جسدها ، مبتعدة عنه ··

وكان ضوء القمر يسقط على وجهها ، واذ ذاك رأيته ملتويا بذلك التقلص الشديد الصامت الذي لاحظته في مناسبات آخرى ·· وكان فمها منفرجا في لون من الابتسام يشف عن التقزز والرهبة معا ، وكانت عيناهـا متسعتين وذقنها بارز الى الامام ·· والى جانب ذلك بدأ جسدها كله بألتواءاته وثنياته العنيفة التي كانت اقرب الى حركات الرقص وكأنه امتداد لوجههـا المتقلص ··

وجعل انطونيو يحاول أن يجذبها اليه ، وهي تقاومه وتنزع نفسها بعيدا عنه ·· ثم استدارت ، فـأمسك بمرفقيها ، وأخذت هي تتلوى وتتثنى بحركة جعلت ظهرها الى ناحيته ، ولكن فمها كان بعيدا عن طائلته ··

ان صورتها وهي تـتثنى وتلتوى كـانت اقرب الى حركات راقصة ·· وفي ضوء القمر الذي كان يثير حركاتهما ، لاحا وكأنهما يؤديان رقصة من نـوع غريب ·· رقصة بلا موسيقى ، ولا قواعـد للـرقص ، ولكنها تخضع رغم ذلك لايقاع خاص بها ··

وفي النهاية جعلته بحركاتها وثنياتها يفقد تـوازنه ، أو لعله فعل هذا عامدا ·· فسقطا على الارض معا ، واختفيا في ظلال آحد آكوام القش ··

الفصل الخامس عشر

كدت آسف لاختفائهما عن نظرى ·· كان القمر ساطع الضياء فى الفراغ بين كومى القش الاخرين ، فى الموضع الذى رأيتهما فيه متلاصقين فى رقصتهما الغريبة ، وبدا لى برهة أن ما رأيت لم يكن زوجتى والحلاق ، ولكن طيفين من اطياف الليل سحرهما الى الوجود سناء القمر وبهاؤه ··

ان ما شهدته عيناى قد طغى على حواسى ، ولكننى بذلت جهداكبيرا للسيطرة على نفسى والنظر الى الموقف بتجرد ·· وفى هذا فان ايمانى بالمبادىء الجمالية والقيم الفنية كان عونا لى ولا اجد فى هذه المحنة ، ولاول مرة رأيتنى أوضع موضع اختبار جبار ·· تذكرت أن ضوء القمر فى الليلة الماضية قد أوحى الى بالحب فى الليل الصامت الساجى ·· وقد بدا لى أننى كنت على حق فى خواطرى ومشاعرى ·· فقط ، فى اللحظة الاخيرة ، جاء شخص آخر وحل محلى ·· اننى تكهنت بالغريزة ، بجمال تلك المناقة ، ولكن العناقة تمت بدواتى ··

على انه ما لبث أن برق فى خاطرى ارتياب مفاجىء بأن هذا الجهد من جانبى لكى أكون موضوعيا ، لم يكن

الا رد فعل للكرامة الجريحة ٠٠ وقد قلت لنفسى اننى استطيع أن أحتكم الى العقل والمنطق والود بالفهم ما شئت ، ولكن تبقى بعد ذلك الحقيقة ، وهى اننى كنت ضحية خداع قاس ، وأن زوجتى خانتنى مع حلاق ، وأن هذه الخيانة أصبحت سدا حائلا بينى وبينها ٠٠ ولدى هذه الفكرة شعرت بألم حاد ، وأدركت أننى ـ لاول مرة منذ أن شاهدت ليدا بين ذراعى أنطونيو ـ ألعب الدور الذى فرض على فرضا ، دور الزوج لزوجة خائنة ٠٠ ولكننى فى نفس الوقت كنت اعلم اننى لست راغبا ولا قادرا على قبول هذا الوضع ٠٠ فاننى حتى الان لم أكن زوجا مثل الازواج الاخرين ٠٠ ان علاقاتنا كانت كما أردتها أن تكون ، وليس كما كانت تقتضيه حالتنا الزوجية ٠٠ وعلى هذه الصورة يجب ان يبقى ٠٠ لا مفر لى أن أستمر فى التزامى الجانب العقلى ، جانب الفهم ٠٠

ان هذه كانت رسالتى الخاصة ، وما كان لشىء ، حتى الخيانة الزوجية ، ان يبرر نبذى لها ٠٠ وحتى وأنا أجرى عائدا الى الفيللا ، فقد أنشأت وأنا كالمحموم أعيد فى عقلى بناء الاحداث التى جرت بينى وبين زوجتى وبين أنطونيو ، واستعرض سيرها بدقة ٠٠

كنت موقنا أن الرجل فاسق ،ولكن كان من المحتمل أنه أول الامر لم يكن يضمر قصدا سيئا من ناحيته ، وأن ملامسته لزوجتى لم تكن الا مصادفة ٠٠

وبنفس الكيفية فان غضبتها كانت حقيقية وصادقة لما أسمته (قلة الاحترام) من جانب الحلاق ، وأن كان فرط الغضب كان يخفى ، حتى ذلك الحين ، بوادر انفعال واستهواء لا شعوريين ٠٠ وواقع الامر أنها في طلبها

منى طرد الحلاق ـ انما كانت تطلب أن أدافع عنها ـ لا ضد الحلاق ، ولكن ضد نفسها ـ ولكننى لم أفهم ، ولم أفكر فى شىء ، أنانية منى ، الا فى راحتى الشخصية ..

وهى لم تميز جانب الانانية فى مسلكى ، كما أنها لم تفهم الحوافز الاكثر عمقا فى نفسها ، واسلمت امرها للواقع ، كدأبها عادة ، من قبيل المودة والمجاراة .. وبهذا فانها استهدفت الى موقف كان فيه الرجل الذى اهانها والذى لم تكن تشعر أنها منجذبة اليه بشعور لا ارادى ، يتردد على البيت كل يوم .. وتعاقبت أيام عديدة بهذه الكيفية ، فى هدنة كاذبة تخفى تناقضاتنا وشهواتها .. هدنة أوجدتها بأنانيتى لكى يتسنى لى اتمام تأليف كتابى ، وهى لم تنجح الا فى تعميق تناقضاتنا وشحذ شهواتنا .. وبعد ثلاثة أسابيع تم عملى ، ولكن ، فى نفس هذه الفترة ، فان زوجتى بلغت نهاية حد الاحتمال فى عواطفها المضطربة الغامضة .. وكانت رحلتى الى البلدة هى كل ما كانت تحتاج اليه لكى ترى الطبيعة الحقيقية لاحتقارها الاول للحلاق ..

وجاء أنطونيو فلم يجدنى .. وقد تلاقيا بطريقة ما ، ربما على السلم أو فى غرفة مكتبى .. ولعله تودد اليها بقوة ، او لعلها كانت صاحبة المبادرة .. ومهما يكن ، فقد كان تفاهم .. تفاهم فجائى ، تام ، نهائى .. ومنذ تلك اللحظة فأن مسلك ليدا اصبح مطبوعا بطابع محموم لا هوادة فيه ، وكأنه حجر يندفع فى الفضاء بكل ثقله وسرعته الى قاع خندق عميق .. وبقسوة لعلها كانت واعية بما تفعل ، ضربت لانطونيو موعدا للقائه فى نفس المكان الذى حاولت فى الليلة الماضية أن أطارحها الحب فيه .. وبعد إن ذهب انطونيو راحت تتصرف بتصميم

قاس دون أدنى تقدير أو حذر أو حتى ذوق ، كما يتصرف العدو ، لا كما تتصرف زوجة ما زالت تحب زوجها ·· لقد تأكدت هى أننى سوف أشغل تلك الليلة حين ذهبت لموعدها ، وقد لعبت معى كما يلعب القط بالفار عندما أخبرتنى بقصة مغامرتها مع الضابط الشاب فى جبال الالب ، والظاهر أنها فكرت فيها عند لقائها مع انطونيو فى ذلك الصباح ·· وعندما حل المساء حرصت فى ارتدائها الملابس على الا تلبس الحزام الامريكى ، لتكون أكثر تجردا واغراء ··

وبينما كنت أتناول طعامى لم تحاول اخفاء صبرها النافذ ، واحتقرت حتى تلجأ الى النفاق الذى يترجم فى هذه المواطن على انه احترام ، ان لم يكن للفضيلة، فعلى الاقل السلوك الطيب · وقد بلغ بى عمى البصر والبصيرة حدا لم ادرك معه ان انعدام شهيتها للطعامكان راجعا الى تلك الشهية التى كانت اشد امتلاكا لزمامها ·· وبينما أغلقت بابغرفةمكتبى على نفسى لكى أكتب ، جلست هى فى الطابق الارضى مدى ثلاث ساعات تدخن السيجارة تلو السيجارة وتعد الدقائق والثوانى ·· وحين ازف الوقت جرت لموعدها ·· وما كان ذلك الرقص الذى كنت شاهدا عليه سوى التفجر النهائى لعواطفها المضطرمة ··

ولابد لى أن أقرر ، عند هذه النقطة ، أننى تبينت فى مسلك ليدا كله التصميم الخادع ولكن الوقت لتصرفات تنفجر فجأة من المواطن الهامدة الخامدة فى الوعى ، ثم يجرى امتصاصا بعد ذلك ، كالانهار فى الصحراء ·· بعبارة أخرى ، عرفت فى هذه الافعال نوعا من الخرق اللاارادى لقانون مقرر ، خرق من النوع الذى يتسم

بالحدة وقوة الاحتمال فى اوله ، ثم لا يلبث ان تخبو حدته وتفتر قوته . . ان كل ما حدث بينهما وبين أنطونيو لم يؤثر ادنى تأثير على علاقاتها معى . .

ان مؤامرتها مع الحلاق ـ تلك التى لن يدوم عمرها أكثر من هذه الليلة فى أرجح الاحتمالات ـ وروابطها معى ، التى دامت عاما ، كانا شيئين مختلفين ، على صعيدين متباينين كل التباين ٠٠ كنت واثقا أننى اذا لم اقل شيئا ، فان ليدا سوف تستمر فى حبها لى كما كان الحال فى الماضى . ربما أكثر ، أنها سوف تخطو بنفسها الخطوة اللازمة للتخلص من أنطونيو فى اليوم التالى ، حتى اذا لم تكن قد فعلت هذا حقا ٠٠

لكن هذه الفكرة بدلا من أن تؤدى الى تسكين نفسى كما كان ينبغى ، أثارت مزيد غمى ٠٠ كانت دليلا جديدا على عجزى ، وضعفى ، وقلة حيلى ٠٠ ان العمل الخـــلاق ، وحب زوجتى ، لم يوهبا لى الا منقبيل الشفقة والعطف ، والمودة ، والكرم ، والفضل ، والمجاراة ٠٠ ان ثمار هذا التعطف لن تكون قط التوفيق فى الحب ، والنبوغ فى الادب ، لكن مجرد تنسيق انشائى مقبول ، وسعـــادة زوجية فاترة ٠٠ لن تكون من نصيبى التحفة الادبية الحقة ورائعة الروائع ٠٠ لن تكون من نصيبى رقصة ضوء القمر فى ساحة الجرن ٠٠ لقد حكم القدر بانزالى الى مرتبة وسط ، الى الابد ٠٠

وفى هذه الاثناء اجتزت المنتزه وما زلت نهبا لاحزانى الغامرة ، ثم دخلت المنزل وصعدت السلم ، وعدت الى عملى ٠٠ ثم امسكت بالقلم ، وامامى رقعة ورق سطرت فى أعلاها هذه الكلمات : « الى عزيزتى ليدا » ٠٠٠ كانت رسالة الوداع الاخير البات لزوجتى ٠٠ ثم لم البث أن ألفيتنى أبكى ٠٠

ولست أدرى الى متى بكيت . ولكن الذى أدريه أننى كنت أبكى وأكتب فى آن واحد ، وانني وانا اكتب ، كانت الدموع تسقط فوق الكلمات وتطمسها .. أردت أن أبلغها ان كل شيء بيننا نحن الاثنين قد انتهى ، وانه من الخير لنا أن نفترق ، ولكننى شعرت وأنا أفكر وأكتب هذه الاشياء بألم عنيف ورفض شمل كيانى كله ، وتجلى الاعراب عنه فى هذا الفيض من الدموع .. لقد أدركت أننى مرتبط بها ارتباطا وثيقا ، وأنه لا يهمنى فى شيء أنها خانتنى ، وأنه على المدى الطويل لا يهمنى حتى لو منحت حبها لاخرين ثم لم تستبق لى سوى المودة .. اننى حاولت أن أتصور ماذا تكون الحياة بدونها ، وايقنت اننى بعد ان فكرت طوال السنوات الماضية فى الانتحار ، فاننى سوف أقتل نفسى حقا هذه المرة .. ومع ذلك مضيت فى الكتابة واسترسلت فى البكاء .. وهكذا أتممت الرسالة وذيلتها بأمضائى .. ولكنى عندما عاودت قراءتها ، رأيتها كلها مطموسة من اثر الدموع ، وايقنت أن الشجاعة لن تواتينى قط لارسالها ..

فى هذه اللحظة تهيأ لى ادراك دقيق لما فى طبعى من ضعف ، قوامه العجز ، والاعتلال ، والانانية .. وقد تقبلت هذا كله من نفسى قبو تماما على الفور .. وصح عندى أننى خليق ، بعد هذه الليلة ، أن أكون رجلا أكثر تواضعا .. ولعلى استطيع اذا انا شئت ، ان لم اغير ما بنفسى ، فعلى الاقل أن أصلح من نفسى واقومها تقويما ، بعد ان عرفت اطوار نفسى فى تلك الليلة الواحدة اكثر مما عرفته طوال سنى حياتى ..

ان هذا الرأى هدأ من روعى وسكن جاشى .. فنهضت عن المكتب ، وذهبت الى غرفة نومى ، وغسلت عينى

المحمرتين المتورمتين ·· وبعد ذلك عدت الى غرفة المكتب ووقفت لدى النافذة المطلة على واجهة المنزل الامامية···

وقفت هناك عشر دقائق على الاقل لا افكر فى شىء ولكن تركت لسكون الليل وصفائه ان يهدى من اضطرابى النفسى وفورة وجدانى ·· اننى لم افكر فى ليدا ، وقد دهشت عندما رايتها تظهر فجأة فى طرف البقعة المكشوفة وتجرى الى ناحية الباب ·· ولكى تغدو أسرع فى سيرها فانها رفعت ذيل فستانها بين يديها ·· وكانت صورتها وانا ابصرها من فوق على هذا النحو وهى تندفع فوق الحصى الذى غمره ضوء القمر ، أشبه بحيوان وحشى صغير لعله ثعلب أو ابن عرس ، أخذ يتسلل عائدا الى جحره والدم يلوث فراءه ، بعد غارة على حظيرة دجاج ··

ان هذا الاحساس قوى فى نفسى الى حد بدأ لى كأنها استحالت الى حيوان ، ورائحة تزكم الانف رغم البراءة البادية على هيأته ·· ولم اتمالك بالرغم عنى من الابتسام ·· ولم تلبث هى وما زالت تجرى أن رفعت عينيها نحوى وانا واقف لدى النافذة ··

وتلاقت عيناها بعينى ·· وخيل الى أننى قرأت فى عينيها نذيرا بسوء وشيك ·· ولم تلبث أن خفضت رأسها فى الحال ، ودلفت الى المنزل ··

وبحركة بطيئة تراجعت عن النافذة ، واتجهت الى الاريكة وجلست فوقها ··



الفصل السادس عشر

بعد برهة فتح الباب ودخلت ليدا مندفعة ..

عرفت فى اندفاعتها هذه خطوة دفاعية ، ولم أتمالك أن ابتسمت مرة ثانية .. وقالت وما زالت ممسكة بمقبض الباب :

ـ ماذا تفعل ؟ .. ألا تعمل ؟ ..

فأجبت دون أن أرفع راسى :

ـ كلا ..

فقالت تزودنى بتفسير لم أطلبه منها :

ـ اننى ذهبت للقيام بجولة فى الحديقة ، اذ لم أتمكن من النوم .. لكن ماذا بك ؟ ..

وفى هذه الاثناء خطت الى ناحية المكتب .. لكن كان واضحا أنها لم تجسر على الاقتراب منى .. ووقفت رافعة القامة بجانب المكتب تنظر الى الاوراق المبعثرة .. أما أنا فقد استطردت أقول بجهد :

ـ هذ المساء قد وصلت الى اكتشاف .. اكتشاف حاسم .. سوف يكون له تأثير هام على حياتى ..

ونظرت اليها .. كانت لا تزال فى وقفتها المستقيمة تحدق فى الآلة الكاتبة عابسة ، وبنظرة ثابتة ،

غاضبة ·· وما عتمت أن سألتني بصوت مرتفع :
ـ أي اكتشاف ؟ ··

أذن فأنها تأهبت لمجابهتي والرد على سؤال بسؤال ·· ··· وجدتني افكر ·· ان موقفها ذكرني بموقف حشرات معينة ، تعمد في حالة الخطر الى رفع نفسها على قوائمها الخلفية متهددة ، وهي حالة يطبق عليها علماء التاريخ وصف (الحالة الطيفية) ·· وخيل الى أنني أسمع صوتها تصيح قائلة : « نعم ·· انني أسلمت نفسي للحلاق ·· أنني احب الحلاق ·· والان بعد ان عرفت ، افعل ما تحب ! ·· » ·

انني تنهدت ورحت أقول :

ـ لقد اكتشفت عندما أعدت قراءة قصتي أنها تافهة جدا ، وأنني لن أصبح قط من الكتاب ··

رأيتها واقفة مكانها ، جامدة وصامتة ، تبدو عليها امارات عدم التصديق لما سمعت من كلام وجدته مختلفا كل الاختلاف عما كانت تتوقعه ·· ثم هتفت قائلة وفي صوتها رنة من عنف :

ـ ما هذا الذي تعنيه ؟ ··

فأجبت بهدوء :

ـ انني اقول لك الحقيقة ·· انني كنت اخدع نفسي ·· عندما كنت أكتب القصة ، فانها بدت لي رائعة من الروائع ، لكنها في الحقيقة عمل مجهض ، مسخ وهزال ·· وأنا لست سوى شخص عادي لا رجاء منه ·

فمرت بيدها على جبينها ، ولم تلبث أن اقتربت مني ببطء وجلست بجانبي ·· كان واضحا انها تبذل جهدا للقيام بالدور الصعب المنتظر الذي فرض عليها ، وأنها تعاني عسرا شديدا في قيامها به ·· وقالت :

ـ لكن كيف يمكن هذا يا سيلفيو؟ .. لقد كنت موقنا ..

فأجبت :

ـ والان أنا موقن من العكس تماما ، الى حد أننى كدت أفكر برهة فى قتل نفسى ..

قلت هذا وأنا أرفع عينى وأنظر اليها .. وعندئذ ادركت اننى كنت طوال الوقت ، حتى عندما كنت اتحدث عن قصتى ـ انما كنت افكر فيها هى .. لم يكن يهمنى فى شىء الان أن قصتى كانت رديئة .. ولكننى مع ذلك لم أستطع الا أن استشعر وخزة ألم حادة عندما لاحظت آثار مغامرتها مع أنطونيو التى كانت بادية عليها فى كل موضع .. كان شعرها متناثرا ، وخصلاته مفكوكة ، وخيل الى كأننى أرى بعض أعواد القش ما زالت عالقة به .. ولم تكن أعواد الازهار موجودة مكانها .. اغلب الظن أنها تركت فى أرض الجرن .. وكان فمها شاحبا ومشوه اللون ، تعلوه بقع قليلة من احمر الشفاه وهناك أسبغت على وجهها مسحة مضعضعة مسوخة .. وكان ثوبها ايضا متينا ، تعلوه عدد مكان الركبتين بقعة حديثة من التربة ، ناجمة فيما يظهر من سقطة على الارض ..

أدركت أنها على وعى بحالتها هذه ، وأنها تصرفت عامدة فى ظهورها بهذا المظهر ، والا لكان فى وسعها بسهولة أن تذهب أولا الى غرفتها وتنظف نفسها وتسوى وجهها وشعرها وتخلع فستانها وترتدى ثوبا منزليا .. لقد استشعرت لدى هذه الفكرة وخزة ألم جديدة ، اذ وجدتنى فيما بدا لى ، مواجها بحالة عداء قاس ذى صلافة ..

أما هى فراحت تقول :

ـ تقتل نفسك ؟ ·· عجبا ·· أنت مجنون ! ·· وكل هذا بسبب قصة لم تكن كما يجب ! ··

ترجمت كلماتها فى عقلى الى هذه العبارة : ؟ وكل هذا بسبب لحظة انحراف ·· لاننى لم أستطع أن أغالب اغراء عارضا ؟ » ··

قلت بصوت مسموع :

ـ ان هذه القصة بالنسبة الى كانت هامة الى أقصى حد ·· لقد عرفت الان اننى فاشل · وعندى الدليل على هذا ·· فى هذا المخطوط ··

قلت هذا وأنا أبدى اشارة عنيفة لا ارادية ، لا فى اتجـاه المكتب الذى كان المـخطوط فوقه ، ولكن فـى اتجاهها ···

فى هذه المرة فهمت (أو لعلها فهمت من قبل ولكنها كانت تأمل ان تخدعنى) ولم تلبث ان اسبلت عينيها من الارتباك ·· ورأيت يدها التى كانت فى حجرها تتحرك الى ركبتها لاخفاء بقعة التربة ·· ان الحب ـ جسـديا يستنفد القوة ، والتكلف فى حالات معينة يعتمد لنجاحه على الحركة البدنية ·· وفى حالتها تلك وقتئذ ، وهى مغلوبة على أمرها ، باعياء الحواس وباضطراب حالتها الظاهرية ، فقد كان عسيرا عليها كل العسر أن تتمالك نفسها وتسترد رباطتها وتؤدى دورها المعتاد كزوجة محبة ·· لقد حفت صدور عبارة طائشة ، وقلت لنفسى انى هذه المرة سأقول لها الحقيقة ·· ولم البث أن سمعت صوتها يقول بلهجة متهدجة على غير المتوقع :

ـ ولماذا الفشل ؟ ·· أنت لم تفكر فى اذن ؟ ··

توقفت لحظة أفكر فى احساس الدهشة التى أثارتها كلماتها هذه فى نفسى ·· كان فى سؤالها أكثر من مجرد

الجرأة والمكر ·· كان به او هذا ما بدا لـي ، رنـة اخلاص مؤثر ·· فقلت بدوري :

ـ وماذا يمكنك ان تفعلي من اجلي ؟ ·· لا يمكنك على الارجح أن تمنحيني الموهبة التي افتقدتها ··

فأجابت بلهجتها البسيطة المعقولة التي كانت تصدر منها أحيانا :

ـ كلا ·· ولكنني احبك ··

ومدت يدها نحوى تتلمس يدى وهى تحدق الى طوال الوقت بعينيها اللتين كانتا تزيدان صفاء وبريقا كلما تمكنت تدريجيا من استعادة شعورها السالف نحوى وطردت عنها ما كان يلابسها من اثار الانفعال ··

فتناولت يدها ، وقبلتها ، وركعت على ركبتى امامها أقول برقة :

ـ انني أحبك انا أيضا ·· والى الان لابد أن تكوني عرفت هذا ·· لكن أخشى أن هذا لا يكفى لكى ابقى حيا ··

وتركت وجهى مسندا الى تلك الركبتين اللتين رايتهما منذ فترة قصيرة عاريتين ترقصان رقصة الرغبة على أرض الجرن ·· وفى خلال هذا كنت اتـأمل فى مدلول كلماتها ·· وهذا ما استخلصته منها : « انني غويت لان الرغبة اضلتني ، ·· لكنني أحبك ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي له قيمة عندي · انني آسفة ولن أعود لمثلها بعد » ··

وهكذا كان كل شيء كما توقعته ·· لكنني الان لم أعد ميلا الى نبذ محبتها تلك ، مهما تكن غير كافية ·· ثم سمعتها تقول :

ـ عندما تلم بك نوبات اليأس هذه ، يجب ان تحاول

التفكير فى ٠٠ مهما يكن من أى شىء ، فاننا نحب أحدنا الاخر ، ولهذا قيمته ٠٠

فقلت برقة :

ــ أفكر فيك ؟ ٠ وهل تفكرين انت فى ؟ ٠٠

ــ دائما ٠٠

قلت لنفسى انها لم تكن تقول كذبا ٠٠ اغلب الظن انها تفكر فى دائما ، وكانت تفكر فى دائما فعلا ، حتى حين اسلمت نفسها لانطونيو منذ فترة قصيرة فى الجــرن لعلى رأيت لونا من السخف والعبث فى الاسلوب الذى تفكر به فى شخصى ، الاسلوب المتواصل العقيم ، الذى لم يمنعها من خيانتى ، بل ربما جعل خيانتها اكثر استهواء واستساغته ٠٠ ولكننى آثرت ان اقول لنفسى أنها كانت فعلا تفكر فى طول الوقت كما يفكر الانسان فى مشكلة مستعصية الحل ولكنها حيوية تحل من نفسه أكبر منزلة وتستغرق من شواغله مركز الثقل ٠٠٠ لعل فكرتها هذه وليدة حسن النية ٠٠ لكننى أخترت الرأى الذى يقول أنه بغض النظر عن حسن نيتها ، فان كل شىء فى طبعها كان قاتما ومختلطا ، ينحاز بها الى أن تستسلم الى الغوايات كالتى دفعت بها الى ذراعى انطونيو ٠

وجعلت تمسح على رأسى برهة ٠٠ وما لبثت أن قالت بصوت مرتعش يشف عن رابطة الجأش والمحبة ٠

ــ هيا قم ٠٠ هل تعرف ماذا سنفعل الان ؟ ٠٠ أننى سأذهب لتغيير ملابسى واجلس فى الفراش ، وبعد ذلك تأتى الى وتقرأ لى القصة ٠٠ وعندئذ سوف ترى ان كانت رديئة حقا ٠٠

ونهضت وهى تتكلم بحركة نشيطة من جسدها كله ٠٠ ونهضت انا أيضا وقد شعرت بحيرة ورحت أحتج بأن

الموضوع لا يستاهل كل هذا العناء وان القصة رديئة لا شك فى هذا وليس ثمة ما يمكن عمله حيالها ·· بيد انها أسكتتنى واضعة يدها على فمى وهى تهتف قائلة :

ــ هيا بنا الان ·· من السابق لاوانه انتصدر الحكم الان ·· اننى ذاهبة الى غرفتى ويمكنك ان تلحق بى بعد بضع دقائق ··

وخرجت من الغرفة قبل ان تتاح لى فرصة الكلام والتعقيب ··

وعندما بقيت وحدى يممت شطر المكتب وتناولت المخطوط بحركة آلية ·· أذن فأن حسن نيتها كان يتزايد ولم يكن ثمة شك فى انها كانت مخلصة ·· فهل يمكن ان أؤمل فى ان حسن النية هذا يمكن ان ينتصر على الاغراء التالى ؟ ·· كنت اعلم ان المستقبل وحده هو الكفيل بالاجابة على هذا السؤال ..

لم البث ان أشعلت سيجارة ووقفت جامد الى جانب المكتب ·· وعندما قدرت ان فترة كافية مضت تركت الغرفة ، متأبطا المخطوط وذهبت الى غرفتها وطرقت الباب ·· فردت على من فورها بصوت منتعش رخيم تدعونى الى الدخول ··

رأيتها جالسة فى الفراش مستقيمة ، فى ثوب نوم بديع محلى بالاشرطة والدنتيللا ·· وكانت الغرفة فى ظلام فيما عدا رأس الفراش ، الذى اضاءه نور مصباح السرير ·· وكانت هى متكئة على الوسائد وذراعاها ممدوتان فوق الغطاء امامها ، تلوح منها امارات الترحيب والتشوق .. وكان محياها فى أبهى زينة ، وخصلات شعرها مصففة ، رشقت فيه اعواد ازهار جديدة فوق صدغها الايسر ·· كانت رائعة الجمال ، يشع من وجهها ذلك الصفاء المتألق الخفى الذى كان قوام فتنتها ·· ولم

اتمالك ان دهشت وانا انظر اليها عندما فكرت فى ان محياها الموفور المتألق والسكينة الان ، كان منذ فترة قصيرة مسموحـا بتقلص الغريزة المـحمومـة التى اعترتها ٠٠

ابتسمت قائلة :

ـ تفاءل ٠٠ انظر ٠٠ انىلبست اجمل رداء نوم عندى لكى انصت اليك ٠٠

فجلست مائلا على حافة الفراش وقلت لها :

ـ اننى سأقرأ لك القصة فقط لانك تريدين هذا ٠٠ لقد قلت لك قبل الان انها رديئة ٠٠

ـ لا تهتم ٠٠ اقرأ ٠٠ انا مصغية اليك ٠٠

فاخذت الصفحة الاولى وبدأت القراءة ٠٠ وتابعت قراءة القصة كلها حتى النهاية دون توقف وانا اصوب نظرة اليها بين فترة واخرى وهى مصغية بجد واقبال ٠

وكنت وأنا أقرأازيد اقتناعا برأيى السالف : عمـل محترم ، وهذا كل ما هناك ٠٠ ومع ذلـك، فـان هذا (الاحترام) الذى بدا لى من قبل بمثابة خاصة لا أهمية بها ـ ما لبث الان ، والان ادرى السبب ، ان بدأ وهو أكثر وزنا مما تصورت ٠٠

على ان هذا الانطبـاع الادنى الى القبـول لـم يشتت ذهنى عن شاغله الاساسى ، وهو زوجتى ٠ ٠اننى لبثت طول الوقت وأنا أتساءل ترى ماذا هى قائلة فى نهايـة القراءة ٠٠ لقد بدا لى ان امامها طريقين مفتوحين ٠٠ الاول ان تهتف بى على الفور قائلة : « لكن ماذا كنت تقصد يا سيلفيو ، والعمل رائع جدا فى الواقع » ٠٠ والثانى ان تسلم بان القصة متوسطة ٠٠ الطريق الاول هو علامة اللامبالاة والخداع ٠٠ فاذا جعلتنى أفهم ان القصة جيدة وهى تعتقد انها ليست كذلك (ولا يمكن الا

ان يكون هذا رأيها) فانها بذلك تبرهن بجلاء انها تريد ان تقودنى من انفى ، وانه لن تكون بينها وبينى سوى علاقة هى الزيف والشفقة ٠٠ اما الطريق الثانى فهو طريق الحب ، وان لم يكن غير حب من طراز ، قوامه المجاراة والمودة ٠٠

هكذا جعلت اتساءل ، ليس بغير قلق ، اى الطريقين تسلك ٠٠ لو انها قالت ان القصة جيدة ، فقد اعتزمت ان اصرخ فى وجهها ٠ « القصة رديئة وما انت الا فاجرة !» ٠٠

لقد تابعت قراءة القصة كلها وهذه الخواطر ماثلة فى ذهنى ٠٠ وكنت كلما اقتربت من النهاية ، ابطأت فى القراءة اشفاقا مما يمكن ان يحدث ٠٠

وفى النهاية قرأت آخر فقرة فى القصة ، ثم قلت وانا رافع عينى اليها :

ـ هذا كل شيء ٠٠

نظرنا احدنا الى الاخر صامتين ٠٠ وقد رأيت برهة كما يرى الانسان غمامة تمر فى سماء صحو ، ظلا من خديعة يسرى مدى برهة فى صفحة وجهها ٠٠ من المحقق انها فكرت لحظة واحدة فى أن تكذب على ، وان تهتف فى وجهى بان القصة جيدة وبهذا تفضح ما عندها من مكر وقصد سيء وازجاء للزيف والرياء .. بيد أن هذا الظل ما لبث ان اختفى لتوة كما جاء ٠٠ وبدا انه قد حل محله حب لى قوامه قبل كل شيء ، الصدق نحوى والاحترام لى ٠٠ وقالت بصوت مليء بخيبة امل خالصة :

ـ ربما كنت على حق ٠٠ ان القصة ليست التحفة التى حسبتها ٠٠ لكنها ليست من الرداءة بالصورة التى تظنها الان ٠٠ انها قصة يشوق الانسان ان ينصت اليها ٠٠

سرى عنى الى اقصى حد ، وقلت وانا اقرب الى

الابتهاج :

ـ ألم أقل لك هذا ؟

فمضت تقول :

ـ انها مكتوبة بصورة متقنة ··

ـ لا يكفى اتقان الكتابة ··

فقالت :

ـ لكن ربما ·· ربما لم تعمل فيها بما فيه الكفاية ·· انك اذا اعدت كتابتها ، أكثر من مرة اذا لزم الامر، ففى النهاية يمكن ان تكون كماتريدها ··

كانت تظن اذن ان حسن النية يمكن ان يكون له فى مجال الفنون قيمة أكبر من قيمة الموهبة الفطرية ، خلافا لما كنت اومن به ·· وقد قلت لها ،

ـ لكننى اريد قصتى ان تكون من وحى الالهام ·· واذا لم يكن ثمة الهام فانه لا جدوى من العمل والمعاناة ··

فهتفت قائلة بحمية :

ـ فى هذا انت مخطىء ·· انت لا تجعل قيمة كافية للعمل والمعاناة ·· لكنك بذاتك ذو قيمة كبرى ·· هذا هو السبيل لاتمام العمل والخلق ·· ان الاعمال لا تتم تلقائيا وانما بمعجزة ! ··

ومضينا نتجادل حينا ، وكلانا متمسك بوجهة نظره المخالفة لوجهة نظرالاخر ·· وفى النهاية طويت المخطوط ووضعته فى جيبى قائلا :

ـ لا بأس ··الافضل الا نتكلم فى هذه المسألة أكثر من ذلك ··

وكانت فترة صمت ، قطعتها بقولى فى رقة :

ـ انت لا تمانعين فى أن يكون لك زوج فى شخص

مؤلف غير ناجح ؟
فردت على الفور قائلة :
ـ اننى لم افكر فيك قط كمؤلف ··
ـ وكيف كنت تفكرين فى اذن ؟
فاجابت باسمة :
ـ لا ادرى ·· وكيف يمكن ان اجيب ؟ ·· اننى اعرفك الان تمام المعرفة ·· اننى اعرف ماذا انت ·· انت انت بالنسبة لى ، دائما ـ سواء كنت تؤلف او لا تؤلف ··
ـ لكن اذا كان يراد أن تصدرى رأيا ، فماذا يمكن أن يكون ؟
فترددت ·· وما لبثت ان قالت باخلاص :
ـ لكن الانسان لا يسعه ان يصدر رأيا اذا كان يحب ··
وهكذا كنا نعود دائما الى نفس النقطة ·· لقد كان فى دفاعها ذاك الذى تتوسل به عن حبها لى ، اصرار مؤثر كان يحرك اعماقى الى ابعد حد ·· وقد امسكت بيدها وقلت :
ـ انت على حق ·· وانا ايضا ، لاننى احبك ، ورغم اننى اعرفك تمام المعرفة ، فلا يمكننى ان اصدر حكما عليك ··
وهنا برقت عيناها ذكاء ، وهتفت ،
ـ هو كذلك حقا ·· عندما يحب الانسان احدا ، فانه يحب كل صورة فيه ·· بعيوبه وغيرها ·
كنت اود ان اقول لها فى تلك اللحظة باخلاص تام : « اننى احبك كما انت الان جالسة فى الفراش ، مطمئنة وباهرة فى رداء نومك الجميل » مزدانة بشعرك المصفف واعواد ازهارك المرشوقة فيه وعينيك الصافيتين المتلالئتين ·· واحبك كما كنت منذ فترة قصيرة عندما

كنت ترقصين رقصة الرغبة ، وتكشرين عن اسنانك تتعلقين بأنطونيو ‥ وسـوف احبـك على الدوام » ‥ لكننى لم اقل شيئا من هذا ، فقد ادركت انها فهمت اننى عرفت كل شيء.وأن كل شيء قد سوى الآن بيننا . . بدلا من ذلك قلت لها :

ـ ربما يأتى يوم اعيد فيه كتابة القصة ‥ اننى لم انفض يدى منها بعد ، يوما ما

عندمـا اظن ان بأستطـاعتى ان اعبر عن اشـيـاء معينة ‥

فقالت منتعشة مغتبطة :

ـ وانا مقتنعة ايضا انه يجدر بك ان تعيد كتابة القصة ‥ بعد فترة من الوقت .

وقبلتها مودعا وقصدت الى غرفة نومى ‥

وقد نمت نوما عميقا ، كنوم طفل ضربه والداه بسبب غلطة او نزوة فبكى وصرخ كثيرا وفى النهـاية سامحاه ‥

واستيقظت متأخرا صباح اليوم التالى فحلقت ذقنى بيدى ، وأقترحت على زوجتى أن نقوم بجولة قبل الغداء فوافقت وخرجنا معا ‥

كان ثمة كنيسة صغيرةعلى قمة مرتفع من الارض فيما وراء المزرعة وملحقاتها ‥ وقد قصدنا اليها سالكين دروبا للبغال وجلسنا فوق السور المنخفض الذى يحوط ساحة الكنيسة، وامامنا صورة شاملة للمشـهد الطبيعى ‥

كانت الكنيسة ضاربة فى القدم ، كما يبد للمشـاهد من النقوش الرومانية فوق العمودين اللذين قام عليهما المدخل الخارجى . وفيما عدا هذا المدخل، لم يبق من الكنيسة سوى جزء من الحوائط ، وزاوية دائـرية

متهدمة ، وبقية من برج ذاهب المعالم ٠٠ وكانت ساحة الكنيسة المبلطة بأحجار غبراء عتيقة ، قد تطاولت فوقها الاعشاب النامية ، ومن تحت المدخل الصغير كان بوسع الناظر ان يلمح من خلال شقوق الباب الصدىء المنفرج الالواح ،صورة جزئيةللشجيرات النامية فى غير تناسق ولا انتظام ، واوراقها تبرق فى اشعة الشمس ٠٠

واسترعى نظرى وانا انظر الى الكنيسة وجود وجه او قناع محفور على قمة احد العمودين ٠٠ ان الزمن قد ابلى وسطح هذا النفس الذى لا بد انه كان الى الصورة البدائية ثم بدا الان ولا قوام له ٠٠ على ان هذا البلى لم يكن شاملا بحيث يحول دون أن يميزالانسانفيه وجها شيطانيا مستطيرا كالوجوه التى ألف مثالو تلك الايام الخوالى تصويرها فى زخارف الكنائس حثا للصالحين ٠٠ لقد اخذت فجأة بمشابهة بعيدة بين الابتسامة المستطيرة فى ذلك الوجه نصف البالى وبين ذلك التقلص الذى رأيته فى وجه زوجتى فى الليلة الماضية ٠٠ اجل ! ٠٠ كاننفس التقلص ، ومن المحقق ان مثالى ذلك العهد الغابر قد تعمدوا ابراز طابع الشهوانية الكثيبة للشفاة ، الغليظة والنظرة المحمومة المنهومة فى العينين ، الايحاء بقيام نفس الغواية ٠٠٠ ولم البث أن حولت بصرى عن نقش العمود ونظرت الى ليدا ٠٠٠ فرئيتها تنظر الى المشهد الطبيعى ، وبدا انها تفكر ... وما عتمت أن اتجهت الى بنظرها وقالت :

ـ اصغ الى كنت افكر فى الليلة الماضية فى قصتك ٠ اعتقد اننى أعرف لماذا هى غير مقنعة ٠٠٠

ـ لماذا ؟ ٠٠

ـ انك قصدت أن تصور نفسك وتصورنى بها ، اليس كذلك ؟ ٠٠٠٠

ـ اجل ‥ الى درجة معينة ‥‥
ـ حسنا ‥‥ انك أولا كنت مخطئا فى الحقائق التى استندت اليها ‥ قصدى أقول ان الانسان يشعر انك عندما كتبت القصة فانك لم تعرفنى معرفة كافية، ولا عرفت نفسك أيضا ‥ لعلك كنت متعجلا كثيرا فى الحديث عنا نحن الاثنين ، وعن العلاقة القائمة بيننا ‥ وبصفة خاصة عنى ‥ انك لم تصورنى فى القصة على حقيقتى ، ولم تبرزنى كما أنا فعلا ‥ انك أسرفت فى تصويرى بصورة مثالية ‥‥
ـ كلا ‥ لا كلام غير ماقلت ‥ واظن فقط انهَ بعد مضى فترة من الوقت ، عندما يعرف أحدنا الاخر معرفة أفضل ، لابد لك من العودة الى القصة من جديد ، كما قلت فى الليلة الماضية ‥‥ وأنا واثقة انك سوف تجعل منها قصة جيدة ‥‥

لم أقل شيئا ‥ كل مافعلته هو انى رحت امسح على يدها ‥‥ وبينما كنت افعل هذا ، جعلت اتطلع من فوق منكبا الى رأس العمود بنفسه ذى الوجه الشيطانى ، وافكر فى اننى لكى أعود الى القصة من جديد ، فلابد لى ، لا أن أعرف فقط الشيطان حق معرفته كما عرفه المثال المجهول ، بل ان اعرف نقيضة أيضا ‥‥

ولم أتمالك أن اختتمت خواطرى بصوت مسموع، ان قلت بنبرة خافته : « ان شيئا كهذا لا بد ان يستغرق وقتا مديدا » ‥‥

« تمـــت »

رقم الايداع بدار الكتب
٢٥٠٢ / ١٩٧١

مطابع الأهـــرام التجارية